



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



الوسيلة بين عرفان حوران والهداية



كتاب المحب عند منقذ ارومية

1857 - 1834

أحمد فارس الشدياق



حزها وقلدها لها: قاسم وهب



المؤسسة  
العربية  
للدراسات  
والنشر

طال سنوري  
للطباعة  
والتوزيع







الواسطة في معرفة أحوال مالطة ، وكشف المختبأ عن فنون أوروبة / أدب رحلات  
أحمد فارس الشدياق / مؤلف ، [ حرّرها وقدم لها : قاسم وهب ]  
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤  
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربية للدراسات والنشر  
المركز الرئيسي :

بيروت ، الصنائع ، بناية عيد بن سالم ،  
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،  
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨



دار السويدى للنشر والتوزيع

أبو ظبي ، ص.ب : ٤٤٤٨٠

الإمارات العربية المتحدة ،

هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١

E-mail : mkayyali@nets.com.jo

التنفيذ والإشراف الفني :

ستيب

تصميم الغلاف : منير الشعراي / مصر

خطوط الغلاف : زهير أبو شايب / الأردن

الصفّ الضوئي :

القرية الإلكترونية / أبو ظبي + المؤسسة العربية للدراسات والنشر

التنفيذ الطباعي :

سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publishers .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشرين .

ISBN 9953-36-589-X



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

« . . . ومن الغريب هنا أنه قد جرت العادة عند العامة بأن يبيعوا نساءهم بيعاً لعدم إمكان طلاقهن ، وصورته أنه إذا شعر الرجل بأن زوجته تحبّ آخر عرض عليها الانتقال إليه ، فإذا تراضيا أخذها وباعها لعاشقها بمحضر شهود ، وقبض منه ما يؤذن بصحة البيع ، وتخلّص بعد ذلك من تبعثها .  
وفي أخبار العالم ما نصّه : رجل باع زوجته في حانة لرجل بخمسة شلينات ونصف ، وقبض الثمن بحضرة شهود ، وذهب بها المشتري ، ولما كان الغد ندم زوجها على ما فعل ، واستقال في البيع فلم يُقبَل . » .

نص الرحلة ص 255

« . . . إلا أنه لا ينبغي أن تفهم من هذا أن الأمور الخطيرة عندهم تبتّ في الحال ، فإنّ لها من التوقيف والتعيين ما يعيى به صبر المنتظر ، إذ لا يبرم عندهم أمر من أول وهلة إلا أن يستفرغ فيه البحث والتروّي ، فعلى قدر ما يهون عليهم ارتجال المقال ، يصعب عليهم ارتجال الفعال ، حتى إنّ ديوان المشورة لا يبتّ شيئاً إلا بعد استفرغ الكلام فيه ، وإنّما المراد أنّهم لا يعدّون بما لا نية لهم على وفائه كما يحدث في بلادنا ، فيبقى الموعود رهين الأمانى يُطعم المثلث ، ويُسقى الموعود ، ثم لا يحصل من بعد ذلك على شيء ، فينتج منه التكذيب من قبل الموعود ، والتنكيد من قبل الواعد . وفي الجملة فليس بين الإنكليز عرقوب ، ولا أشعب . » .

نص الرحلة ص 227





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



أحمد فارس الشدياق 1804-1887م «هو أحد أقطاب الأدب العربي العظام ، نشأ في لبنان ، وشبّ في مصر ومالطة ، واكتهل في باريس ولندن وتونس ، وشيخ في القسطنطينية ، فمات ابن ثلاث وثمانين ، ما أحوجته الثمانون إلى ترجمان ، ولم تأخذ من ذلك الرأس شيئاً ، فبقي عوده غضاً ، ونفسه خضراء كما شهد بذلك جرجي زيدان» .

بهذه العبارة الموجزة لخصّ مارون عبود ترجمة الشدياق<sup>(1)</sup> ، الذي حمّله الاضطهاد الديني على الخروج من وطنه شاباً غضّ الإهاب ، ليعود إليه في صندوق مقفل بعد أن نيّف على الثمانين ، وترك في الدنيا دويّاً ولا دويّ المتنبّي!

ينتسب فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر إلى سلالة المقدّم رعدا بن المقدم خاطر الحصريّون الماروني الذي تولّى جُبّة بشرّي (لبنان) في أوائل القرن التاسع عشر . فهو ينتمي إلى أسرة خاضت غمار السياسة في الدنيا والدين ، واكتوت بنارها ؛ فمات أبوه وجدّه وأخوه دفاعاً عن حرّية الرأي ، فليس غريباً أن ينشأ الولد على ما كان أبأوه .

(1) انظر مارون عبود / مجلة الكتاب / السنة الأولى / الجزء العاشر / المجلد الثاني / أغسطس 1946م





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

ما تعني العمل الدؤوب الذي لا يعرف الكلل في عصر عمّ فيه الجهل والتخلف، ووهت تلك الأواصر التي تصل حاضر الأمة بماضيها لتمكّن من استشراف المستقبل على أساس من الوعي بالذات، ومن ثم الوعي بالآخر الذي قطع أشواطاً في مضمار التمدّن والرقّي.

فاللغة العربية لسان الأمة، وذاكرتها، ومخزنُ عبقريتها، ووسيلتها للتعبير عن حاجات العصر، كانت قد غلبت عليها العجمة، والركاكة، وأثقلتها قيودُ الصنعة، فبدت عاجزة عن مواكبة العصر ومستجدّاته، إلى أن قيّضَ الله لها تلك النخبة المستنيرة من اخترقوا حجب الجهل، وبددوا بمشاعل قرائحهم ظلمات التخلف والركود؟ ليعيدوا إلى هذه اللغة حيويّتها، وقدرتها على الاستجابة لمطلّبات النهوض والإصلاح.

وكان الشدياق في مقدمة هؤلاء الأعلام؟ إذ وجّه جلّ اهتمامه إلى بعث العربية من رقدتها، وإحياء أديبها وكنوزها، ولعلّ خير دليل على ذلك عناوين كتبه من مثل:

- سرّ الليال في القلب والإبدال، وهو كتاب لغوي تحليلي يقع في 600 صفحة من القطع الكبير.

- الجاسوس على القاموس. ألفه في الأستانة، ينتقد فيه القاموس المحيط للفيروز آبادي ويقع في 700 صفحة من القطع الكبير.

- منتهى العجب في خصائص لغة العرب، نحا فيه نحواً لم يسبق إليه، ويقع في عدّة مجلّدات، ولكنه فقد في الحريق الذي أصاب منزله في الأستانة. هذا إلى جانب مساهماته الكثيرة في جريدة الجوائب على مدى ثلاثة عقود تقريباً.

لكن اهتمام الشدياق بشؤون اللغة والأدب لا يعني البتّة أنه قصر عنايته على هذا المجال فحسب، بل توجه في كتبه الأخرى ومقالاته العديدة إلى التبشير بحقائق العصر الحضارية، ومحاربة الجهل والتعصّب، والوقوف في وجه الظلم، وتندرج في هذا السياق دعوته إلى تخليص المرأة من القيود الجائرة، التي حالت دون مساهمتها الفاعلة في بناء المجتمع الحديث، وذلك بتعليمها، وتهذيبها، وتأكيد إنسانيتها، وفتح





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

كانت من الأسباب التي حفزته إلى تقرّي هذه المدنيّة وفحصها عن كثب . يُضاف إلى ذلك معرفته بالشيخ رفاعة الطهطاوي أحد أقطاب النهضة الحديثة في مصر ، وصاحب الرحلة المعروفة بـ «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» حيث من المرجّح أن تجعله أكثر اقتناعاً في ارتياد الغرب والتحقّق ممّا يُقال فيه أو عنه .

فلمّا سنحت له الفرصة في السفر إلى إنكلترا ، والإقامة فيها لسنوات سارع إلى تدوين هذه التجربة في كتاب شامل يبرز به سلفه الطهطاوي ، الذي كان يكنّ له الكثير من الاحترام ، ويجعله دليلاً ومرشداً لمن تتوق نفسه إلى معرفة الغرب ، وما أنجزه من التقدم والرقي .

إن من يعن النظر في سيرة الشدياق ، لا سيّما أثناء إقامته في أوروبا يلحظ أنّه لم يتوقّف عن السعي للوصول إلى سلاطين زمانه في كل مناسبة ، لعلّه يجد عند أحدهم خطوة تمكّنه من أن يسعدّ في ظلّه من جهة ، وليضع في خدمته مواهبه وقدرته على المساهمة في الإصلاح والتنوير من جهة ثانية .

وسرعان ما قاده الحظ إلى تونس ، حيث استقدمه «الباي» من باريس كما أسلفنا ، وكان هذا الحاكم المصلح آنذاك يعمل على تحديث بلاده ، وبناء دولته على أسس عصرية ، وقد أسند تنفيذ هذه المهمّة إلى خير الدين باشا التونسي أحد المصلحين الكبار ، وأحد أركان النهضة والإصلاح في الأقطار الإسلامية ، والذي رآه الشدياق جديراً بأن يهدي إليه مُدوّنته عن حضارة الغرب ، مشفوعةً بقصيدة عصماء يعدّد فيها مناقبه . يقول في مطلعها :

إذا كان خير الدين عني راضياً  
فما ضائري أن أغضب الدهر والوسعا  
هو البحرُ جوداً والصبحُ صباحاً  
ونورُ الدجى نفعاً ولطفُ الصّبَا طبعاً

فأثابه خير الدين بخاتم من الماس ذكره الشدياق في هذه القصيدة ، ثم طبع الكتاب بمطبعة الدولة التونسية سنة 1283 هـ .

وربما كان الشدياق في هديته تلك «كجالب التمر إلى هجر» كما «أنّ العوان لا تُعلم الخمرة» فالوزير التونسي لم يكن خبيراً بشؤون السياسة والإدارة فحسب ، بل





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

وعدم الشكل ، وإن الشيء إنما يبرز إذا كان في مستقره ، حتى عرفوا الظلم أنه وضع الشيء في غير مقره ، ومعلوم أن محلّ العرب مباين لمحلّ العجم ، فكان أحد الفريقين إذا جاوز محله فقد ظلم ، إلى غير ذلك من تناقض العبارات والاعتبارات ، كما جرت بذلك عادة البلغاء في المحاورات ، إذ كلّ حكم وقضية من القضايا الجارية أطالوا فيها المقال ، وجالوا فيها من حيث لا مجال ، كاعتزال الناس والانفراد عنهم ، والمخالطة لهم والأخذ منهم ، فبعضهم آثر الأول ، وودّ أن يقضي عمره على قنة جبل ، وبعضهم شبّه الزحام بمنهل عذب لذي الأوام<sup>(4)</sup> ، وأمثال ذلك لا تحصى ، ولا تعدّ ولا تستقصى ، فكان الركون إلى ما قالوا ، والمعول على ما فيه جالوا وأطالوا ، غير هادٍ وحده سبيلاً قويمًا ، ولا شاف كليماً إلا إذا امتحن الناقد اللبيب بنفسه أيّ الفريقين أصدق قيلاً ، وأهدى سبيلاً ، وأطلع على ماذا حملهم على الذم والقدح ، والثناء والمدح ، وماز المعلم من المجهل<sup>(5)</sup> ، والحالي<sup>(6)</sup> من المعطل ، فهو حينئذ خبير وأيّ خبير ، غير مفتقر إلى ناصح منهم ومشير ، والحاصل أن لكل امرئ شأناً يعنيه ومطلباً هو مقتفيه ، وأن ما قضى الله يكون ، سواء ذمّ الدامون أو مدح المادحون ، هذا وقد كنت في عنفوان شبابي ، وجِدّة جلبابي ، وإزهار سنّي ، وازدهار ذهني ، لهجاً بالسفر والاعتراب ، والترحّل عن الوطن والأصحاب إلى بلد ينضر فيه غرسي ، وتطيب فيه نفسي ، واقتبس فيه من مصابيح العلم قبساً ، وألقى إذ الدهر لي موحش خليلاً يصادقني مؤنساً ، حتى أدتني أعمال حابطة<sup>(7)</sup> ، إلى جزيرة مالطة ، فألفيتها لا كما أملت ، وكابدت منها ما لا يفني بما عنه ترحّلت ، فعنّ لي أن أظهر ما بطن منها ، وأكشف مخبأها لمن رغب فيها أو عنها ، فألفتُ فيها كتاباً سمّيته «الواسطة إلى معرفة مالطة» ثم لما رأيت أن هذا الشرح لا يروي غليلاً ، ولا يشفي عليلاً لكونه مقصوراً على وصف الجزيرة ، وهي من الصغر بحيث لا تمكّن الواصف من أن يُطيلَ فيها من

(4) الأوام : العطش . (م) .

(5) المعلم : ما كان فيه علامة أو إشارة ، والمجهل ضده . (م) .

(6) الحالي : المزين بالحلي ، وضده المعطل . (م) .

(7) حبط العمل بطل . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



التوجه إلى برستول  
جبال والس  
العودة إلى برستول  
بلدة باث  
جلتtenham  
كلوستر  
اجتاز عدة بلدان منها استورد  
أكسفورد  
قرية صغيرة قبل كمبريج  
كمبريج  
لندرة  
دارنكطون  
بنريث  
سكوتلاندا  
ليفربول  
منشستر  
أيدنبورغ  
كلاسكو  
كمبريج  
لندرة  
من لندرة إلى بولون  
باريس  
لندرة  
باريس  
لندرة



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

فأما عدد الأهلين الآن بالنظر إلى صغر الجزيرة فإنه عظيم جداً ولم يعهد من قبل قطانها كانت تحوي هذا المقدار وإنما يعلم أنها كانت مأهولة بأسرها إلا أن بعض جهات منها خلت عن السكان كما يستدل على ذلك من الآثار الباقية ، وما وصل إلينا من أسماء بعض قرى لا وجود لها . وسبب ذلك - فيما قيل - أن المالطين حين كانوا تحت ولاية الأرجونيين وجدوا أنفسهم عرضة لغزو المسلمين المتتابع ولهجوم لصوص أفريقية ، فجعلوا مقرهم شرقي المدينة صيانة لعرضهم ومالهم ، وأخلوا الجهة الغربية .

وذكر بعض الجغرافيين أن مالطة كانت تسمى في القديم هيبرية وقال بعض : إنه لم يوجد في بلاد أوربا جزيرة عُرفت بهذا الاسم وإنما هو اسم مدينة قديمة في صقلية ، ثم عرفت أخيراً باسم كامرينة . ولما استوطن الفينيقيون هذه الجزيرة سموها أوجاجية ، وسمّاها اليونانيون : مليتة ، واشتهر ذلك في سنة 822 قبل الميلاد ، وسمّاها المسلمون مالطة ، ومعنى ميليسة أو ميليتة في لغة اليونان النحل ، وزعم قوم أنها سميت باسم ميليتة ابنة دوريس على جهة التعظيم ، وهو مشتق من ميلت في السريانية ، وهو اسم إله ، ويعرف في غيرها بجونوا ، ولا يبعد أن يكون ذلك أيضاً في اللغة الفينيقية . قال : وروى بعض المؤرخين أن بناء مدينة فوتابيلي كان بعد الطوفان بنحو ألف وأربعمائة سنة ، وأعظم ما فيه عبرة من مبانيها قبل تاريخ النصارى هياكل جونوا وأبروسربين وهركوليس وأبولو فموقع الأول هو بين فيتوربوزة وصانت أنجلو .

ويُحكى أن ملك نوميديا الذي كان دأبه غزو مالطة كان قد أخذ منه قطعة بديعة من العاج وأهداها إلى أستاذه ، ففرح بها أولاً غاية الفرح ، ولكن لما علم أنها أخذت من الهيكل ردّها إلى الملك والتمس منه أن يعيدها في محلها وموقع هيكل أبروسربين في قلعة تسمى مطرفة وقد وجد فيه آثار ، وموقع هيكل هركوليس في جهة الجزيرة الجنوبية بالقرب من مرسى سيروكو (أي مرسى الشرق) وهو من بناء الفينيقيين ، وقد وجد فيه آثار كثيرة . وموقع هيكل أبولو عند فوتابيلي وهو من بناء الإغريقين ، وكان ذا رونق عظيم ، ويُقال إن جملة ما أنفق في بنائه بلغ سبعمائة وتسعين سسترسياً ، وقد علم ذلك من وجود صنم نصبه له مجلس عام ، ووجد أيضاً آثار حمام في محل اسمه قرطين .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

تخالف الفصول شيئاً فشيئاً وليس من علامات الربيع شيء بمالطة سوى تكاثر البراغيث ، فهي آفة من الآفات . ولا من علامات الخريف سوى تناثر أوراق الشجر المعدودات ، ومع ذلك فإن كثيراً من الإنكليز يأتون إليها ليقضوا فيها الشتاء . أما عام المطر فيها في الصيف فسببه قلة الشجر والغياض ، فإن السحب إذا مرت فوقها لم تجد ما تجذب منه رطوبة .

ولعل الأدوية والعقاقير التي تبقى مدة طويلة في مالطة تفسد بالكلية ، ويزول ما بها من الخاصة فإن التبغ والنشوق والخمر إذا بقيت فيها زماناً يزول طيبها رأساً لأن مبلط الديار وحيطانها وسقوفها من حجر ندي كما مر ، فإذا وضعت مثلاً ملحاً في خزانة لا يلبث أن يندى كأنه خلط بالماء ، وكذلك تعفن المأكولات والمشروبات إذا وضعت في مخدع من خشب مصبوغ ؛ فإن الندوة تسري إلى الصبغ ، ولذلك كان البدل وهو داء المفاصل شائعاً في مالطة وقل من يسلم منه . وقد أصبت به أول سنة فكنت أقوم في الصباح موجه الأعضاء لا أنشط إلى شيء ، وما زال ذلك يتزايد بي حتى لزممت الفراش ، فلما عادني الطبيب ورأى مبلط المنزل أخبرني بالسبب فعظم علي ذلك ، ثم لما سمعت بأن أكثر الناس ممنئون به هان علي ما لاقيت وتأسيت بهم . ودواء هذا الداء الإقامة في محل مواجه للشمس عند طلوعها . وقد كان يعلو كتبي من أثر الندوة عطن يلتصق به بعض الورق ببعض ، ومن جعل مرقدته قرب حائط فلا يأمن غائلة صداع أو وجع أسنان ، ومن يكن ذا علة في صدره فأعظم خطر عليه التعرض للريح بعد أن يكون في محل دفيء مع أن الغالب على أهل مالطة الشدة والقوة غير أنهم ولدوا على هذه الحال فلا تؤثر فيهم رداءة المكان ولا الزمان ، وما توصي به الأطباء هنا اتخاذ غلائل الصوف المسماة فلانله صيفاً وشتاءً أما في الشتاء فللدفاء ، وأما في الصيف فلتنشيف العرق ، ومنع ضرر الريح النافذة في المسام حتى إنهم يخشون من الريح على الحيوانات فإنهم إذا أوقفوا الحصان في سيره أداروا وجهه إلى غير جهة الريح وقس على ذلك .

أما أرض مالطة فإنها ملط صخرة جرداء قليلة الثرى والشجر والنبات ، ودائرها كله صخر لا ينبت فيه شيء إلا أنه لشدة اجتهاد أهلها ، وفرط كدحهم ينبت فيها أكثر أصناف البقول والفاكهة ، لكن غلتها لا تكفيهم أكثر من أربعة أشهر ، والباقي



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

جنس العرب والمسلمين على الإطلاق ، ومنتهى الذم عندهم أن يقولوا عَرَبِي بسكون الراء على أنها في جميع لغات الإفرنج بالفتح ، ولا يمكن أن يخطر ببالهم أن من العرب من هو ذو أدب وكياسة ، بل لا يكادون يظنون أن اللغة العربية يتكلم بها غير المسلمين . وحيث كانوا يعلمون أن الإفرنج ينسبونهم إلى العرب زادت بغضتهم له ، فما أحد ممن ألف الحظ في الحمام والبساتين والغياض والمواسم والتأنق في المطاعم يترك بلاده ويأتي إلى هذه الصخرة الصماء .

هذا ومن يكن من العرب ذا غيرة على لغته فلا يطبق أن يسمع الكلام المألطي على فساده . ومع كون هذه الجزيرة قريبة جداً من تونس وطرابلس فما بها أحد منهما سوى عابر طريق قال الشاعر :

وأصعبُ ما يلقي الفتى في زمانه  
إذا حلَّ نجم السعد في برج نحسه  
إقامته في أرض من لا يؤده  
وصحبته مع غير أبناء جنسه



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

يتبوؤها<sup>(37)</sup> الإنكليز أجراس صغيرة مدلاة بأسلاك حديد نافذة في الغرف ، ويتصل بها شرائط من حرير ، فإذا أراد المخدم إحضار الخادم جبد الشريطة فسمع الخدم صوت الجرس من كل جهات الدار ، وهذا أوفق من التصفيق باليدين وربّما كتبوا على صفحة الباب : اقرع الباب ، أو أطنّ الجرس وكذا العادة في بلاد الإنكليز ، ولكن ليس في الأبواب هنا خروج لوضع المكاتب كما في ديار لندرة .

## طرق المدينة

أما طريق المدينة فإن الماشي فيها أبداً يصعد ويهبط كحيزوم السفينة في الأمواج غير أنّ لها درجاً يهون من صعبها ويمكن المشي على حافاتها تحت المطر ، ولكل طريق حافتان عن اليمين والشمال لممر الناس ، ومرور الخيل والعجلات في الوسط ، وقد كانت جميعها سابقاً مبلّطة ، فكانت كرقعة العجلات عليها لا تطاق ، فاقتلعت الإنكليز بلاطها من الوسط وجعلوا بدله تراباً وحصى فقال أهل مالطة : إن الإنكليز دأبهم أن يحربوا<sup>(38)</sup> بلادهم كما حربوهم من قبل في أخذهم مدافع النحاس ووضعهم مكانها أخرى من حديد . والحق يُقال إن فرش الطرق بالتراب والحصى يجعلها في الصيف مثاراً للنقع ، وفي الشتاء منافع للوحد . وإنما فعلت الإنكليز ذلك مراعاة لرضى بعض الأعيان الذين لهم عواجل ، فلنفع هؤلاء وحدهم أغمضوا عن نفع العامة وهذا دأبهم من أنهم يراعون خاطر العلية دون الجمهور ، والباقي من الحجر على الحافتين متى تصبه الشمس في الصيف يصر مُسَدِراً<sup>(39)</sup> .

هذا ولما كان أهل مالطة أحرص الناس على ملابسهم وأحذيتهم كان خروجهم في الطرق ولا سيّما في الشتاء قليلاً فتبقى الطرق دائماً نظيفة ، فأما في لندرة فإن النساء يخرجن صيفاً وشتاءً ويلبسن نحو قباقيب تقيهن من الوحد ؛ فلهذا تكون طرقها

(37) يتبوؤها : يسكنها . (م) .

(38) حربته : سلبه كل ما يملك . (م) .

(39) مسدر : محير للبصر . (م) .





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

وفي المدينة أيضاً عدّة حوانيت مشحونة بأصناف الكتب ليس فيها خرم ولا نقصان ، ويمكن أن يقال إن الكتب بأوروبا أرخص ما يكون لا جرم أن المولع عندهم بالعلوم مع سعة ذات اليد لأسعد الناس ، لأنه إذا شاء أن يتعلّم أي فن كان وجد له فيه شيخاً ، ولأن الكتب والأدوات اللازمة لذلك الفن حاضرة عتيدة يجدها بأهون سعي ، ولا يخشى في الكتاب خرمًا كما ذكرنا ولا تحريفاً ، فكل كتبهم مصحّحة ، ولأن المدارس الوقفية تعلّم فيها العلوم مجاناً أو يُعطى في مقابلة ذلك شيء زهيد ، فطالب العلم في مالطة يُعطى في الشهر شلّينين ونصفاً ، وطالب اللغة شلّيناً واحداً ، ولعمري إن طالب العلم في لغتنا لو لم يصدّه عن المطالعة إلا تعذّر وجود نسخة صحيحة لكفاه ذلك عذراً فضلاً عن نصّبه وحرمانه وخموله .

وفي فالتة سبع مطابع إحداها للميري<sup>(49)</sup> تطبع فيها الأوامر والنواهي التي تصدر من ديوان الحكم ، والباقي للأهلين ، وفيها أيضاً دار لصحف الأخبار الواردة من أوروبا ، وداران للصرف توضع فيها الأموال ، ومنازة فيها فانوس كبير لهداية السفن ، وعدة مكاتب للصبيان والبنات يعلم فيها القراءة والكتابة والحساب والتطريز والخياطة ، وغير ذلك . غير أن الأولاد تغلب عليهم لغتهم وتمنعهم عن التكلّم بغيرها إذ كانت هي اللغة الغالبة ، وإلى الآن لم يُعلم من نساء مالطة من نبغت في المعارف والتأليف ، فغاية ما يتعلّم إنّما هو أن يقرآن بعض كتب كنائسية . وقد كان في السابق دار معدّة لتلقي النغول<sup>(50)</sup> ، وتربيتهم ، وقد بطلت الدار وبقيت عادة النغول وعادة التبني من اليتامى . وفيها ثلاثة مستشفيات أحدها للعسكر والثاني للرجال والثالث للنساء . ومن لم يكن لها مأوى تأوي إلى هذا المستشفى وتمكث فيه ما شاءت ، وبخارجها أيضاً أربعة أخرى أحدها للمجانين ، وأكثر جنون أهل مالطة يكون عن وساوس في الدين ، وقد رأيتُ فيه عجوزاً تهذي وتقول : اليوم عيد كما أمر بذلك القسيس ، والثاني للمرضى من العساكر البحرية ، والثالث للفقراء ، والرابع للطاعنين في السن العاجزين عن تحصيل معاشهم الماديين لوداع الدنيا يداً والمغمضين عن

(49) يستخدم الشدياق كلمة الميري للدلالة على ما نسميه اليوم : حكومي ، أو رسمي . (م) .

(50) النغول : جمع نغل : ولد الزنى . (م) .





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

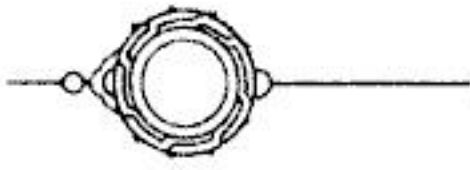


You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

والإتقان إلا أعمل المألطية وثيق متين فإذا اشتريت مثلاً حذاءً أو ثوباً مخيطاً بقي مدة لا يحتاج إلى تصليح . أما عمل الإنكليز منها فحسن في الظاهر لكنه لا يبقى على الاستعمال ، وعمل الفرنسيين ما بينهما . ومن الرسوم الحسنة في مألطة أنه إذا أراد أحد شراء شيء من الفضة والذهب ذهب إلى قيم الصنعة وسأله عن قيمته ، فيزنه ويكتب له تذكرة بذلك ، فأما الجعل<sup>(56)</sup> فموكول إلى التراضي ، والغالب في مشتري الجواهر أن يكون أنقص من الثمين .



### مما يكره في مألطة

ومما يكره بمألطة كثرة المتسولين وإلحاحهم بالسؤال حتى إنهم يقرعون الأبواب وقت الغداء ويجرون مع الماشي ، ولا يبرحون مستجدين حتى يفوزوا بشيء وهم يرون أن حقاً على الموسرين أن يواسوهم بأموالهم ، وإذا أعطيت أحدهم مرة فكأنما قد دون ذلك عليك في الدستور ، فأينما يرك يلزمك . وأول كلامهم في الاجتداء قولهم «عن روح مسيرك» أي أبيك أو «عن أرواح البوركاتوريو» أي المطهر ، وكان بعضهم يقول لي «عن روح محمد تيعك» ، والتوسل في باريس ولندرة ممنوع .

ومما يكره أيضاً ما عدا طنطنة أجراس الكنائس المتتابعة أصوات الباعة الذين يطوفون في الأسواق لبيع الفاكهة والبقول والسمك والحليب والماء ، فإن فغر أفواههم ، ومط أصواتهم ، وفضاعة لحنهم على اختلاف معنييه لمما يُستعاذ منه . كيف لا وهم يقولون للتفاح : تُفِيح ، وللرمان : رُمَيْن ، وللبطيخ : بتيح (بالحاء المهملة) ، وللخيار «حيار» (بالحاء المهملة أيضاً) وللإجاص «لنجاس» بكسر اللام وسكون النون ، وللدلاع «دليع» وللخبز «حبس» وللماء «للماء» (بكسر اللام الأولى وسكون الثانية وقصر الألف) وللخوخ «حوخ» (بالحائين المهملتين) وما أشبه ذلك . فلا يمكن للعربي استماع ذلك ولا سيّما إذا كان في اليوم مراراً من أشخاص ذوي شراسة وفضاظة . وعلى ذكر الخوخ يحسن هنا إيراد ما قاله بعض الأدباء وفي الناس من يبدل الحناء

(56) الجعل : بضم العين وفتحها وسكون العين : ما يجعل للعامل من أجر . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

أكبر تاجر في بلاد الإنكليز؛ فإنهم يطبخون اللحم مع جميع البقول الغالب أن الإفرنج لا نظافة لهم في الطبخ من حيث كانت خداماتهم أبداً مكشوفات الرؤوس فيتناثر شعرهن في الطبخ، ولأنهم قليلاً ما يبيّضون أنية الطبخ حتى إن هذه الصنعة في مالطة تكاد أن تعد من المفقود، وأكثر أنية الطبخ عند الإنكليز من الحديد وهو أسلم عاقبة، وأهل مالطة مثل غيرهم من الإفرنج في كونهم يأكلون الخنوق، وزادوا عليهم في أكلهم الميتة من الدجاج ونحوها. وإذا دعوت أحداً منهم إلى مأدبة لم يكن منه في خلال التهامه ما بين يديه إلا الشئ على نفسه بأنه قليل الأكل وعلى ذلك قولي:

لثامٌ إذا ما زرتهم في بيوتهم  
كـرامٌ إذا زاروك ما أمكن اللحسُ  
ولو وسّعت أفواههم غير ما بها  
لكان لكلّ بين أنيابه فأسُ

وقلت أيضاً:

جـاري ثغـرٌ لـلهم القـرى  
وذمّ الورى منتـهى حـده  
فلا شيء أسهل من فتحه  
ولا شيء أصعب من سده

وكلهم يأكلون الثوم والبصل نيتاً فلا تزال رائحة أفواههم منتشرة.

### مراقدهم ومجالسهم

أما مراقدهم فإنهم يرقدون غالباً على سرر من حديد والمتنكلزون منهم يتخذون في الصيف سرراً منه، وفي الشتاء من الخشب، وفرشهم متعددة وثيرة، وقد سمعت أن غير الأغنياء يتخذون فرشاً عالية ولكن لا يرقدون عليها وإنما ينضدونها للمفاخرة والمباهاة، والأطباء هنا يقولون إن الرقود على فرش القطن مضعف للجسم، وإن حبل الليف أو التبن إذا نش كان خيراً منه، وفرش الأغنياء من الصوف.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

طالبون للإحصان حتى إذا حصلوا على المهر فرؤوا به إلى البلاد البعيدة ، ثم المتعه أو التسري أمر مستفيض عند جميع أهل مالطة ، وقد ترك المرأة المتزوجة بعلمها وتهوي في إثر من تهوى ، وكذا الرجال . وأعرف كثيراً من العيال قد فارق منهم الزوج زوجته وأقام مع أخرى وأقامت هي مع آخر ، وتسرى أبوه بنساء وأقامت بناته مع رجال أو صرن بغايا ، والبغايا في هذه الجزيرة لسن ذوات ثروة ولا جمال رائع الا ما ندر ، فلا تجد لإحداهن داراً على حدتها أو خادماً لكنهن في الغالب غير وقحات ولا متهافتات على الرجال ، بل هنّ لعمري أصون لساناً من المتزوجات وأكثر ماء وجه ، إذ لا يحدقن في الرجال كالمترزوجات ولا ينتقدن السحنة والزي ولا يتشبتن مثلهن بالنميمة ويترددن على الكنائس كثيراً ، وليس منهنّ من تريد أن تموت في الذنوب كما هي عبارتهن ، وحين يأتين الفاحشة يغطين وجوه صور القديسين التي في حُجرهن أو يقلبنها تأدباً وتورعاً ، وفي الجملة فإن أهل مالطة جميعاً رجالاً ونساء يغلب عليهم الشبق والسفاح .

## آداب الجنّازة في مالطة

أمّا عاداتهم في آداب الجنّازة فكعادة الإفرنج في أنهم لا يقيمون المآتم على الميت ، فلا تعرف أن أحداً من الأهلين مات إلا من صحف الأخبار ، وهي عادة حميدة ، فإنّ العويل والنحيب فضلاً عن كونهما لا يُحييان مائتاً ولا يردّان فائتاً أو كما قال الشاعر : «ولم يرجع الموتى حنين المآتم» يُلقيان الهمّ والرعب في قلوب السامعين ، وإنّما يلبسون الحداد على الميت مدةً طويلة ، ويدفنونه بعد أربع وعشرين ساعة ، وربّما أرسلت الجيران إلى أهل الميت وضيمة<sup>(73)</sup> كما في برّ الشام . أما عليّة الإنكليز فلا يدفنون الميت إلا بعد أسبوع في الأقل كما في بلادهم ، وإذا مات لحد المالطين طفل صغير أقبلت عليه الأصحاب تهنّئه قائلين : «نفرح لك بالجنة» ومتى ولد لهم ولد وضعوا تحته التبن ليكون سقوطه عليه تشبيهاً بالمسيح ، وإذا مات أحد من ضبّاط

(73) الوضيمة : طعام المآتم . (م) .





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

مع أن لدولة الإنكليز في هذه الجزيرة عدّة سفائن حربية نفقة كل منها في اليوم نحو مائتي ليرة ، وترى عساكرها لا يبرحون يخرجون من حانة ويدخلون أخرى حتى ينفقوا آخر فلس معهم ، حتى صار معلوماً عند الجميع أن الأسار إنما تغلوا بوجود هذه السفن ، ثم إذا سافرت أخذ الذين ألفوا البيع لها في الدمدمة والتسخط من كساد ما عندهم ، فإن الأهلين كلهم لا ينفقون ما تنفق سفينة واحدة منها .

هذا وإن الإنكليز قد أنشؤوا فيها جملة مصالح ومعالم لم تكن للمالطيين في حسابان ، فقد كان بعض أصحابي بالإسكندرية كلّفني بأن أسأل ناظر الديوان عن تركة والده ، وقد تُوفي بمالطة ، وهل كان تحت حماية الإنكليز أو لا ، فلما سألته أجابني بعد البحث بأن ديوان مالطة قبل قدوم الإنكليز لم يكن له دفاتر مصحّحة يُرَجَع إليها ، وإنما كانت عبارة عن أوراق يومية غير منظومة ، على أن المالطيين أنفسهم يقرّون بأن حكّامهم في القديم كانوا ينالون من عرضهم لأنهم كانوا قد حرّموا الزواج على أنفسهم ، حتى إنّه تجمّع في دار معدّة للنغول نحو ألف ولد يُزَن<sup>(81)</sup> في كونهم أولادهم ، فكانوا يقولون فيهم : إنهم عل قسيسين يورّون بذلك أن الحكّام المتشبهين بالقسيسين يكفلونهم لكونهم آباءهم ، أو أن الاولاد يصيرون قسيسين ، ولكن دأب أهل الجهالة أن يستطيبوا الماضي على الحاضر ، ويظمعو في أن الآتي يكون خيراً منهما . ومن ذلك كراهيتهم للغرباء ولا سيّما العرب ، ولن يقدر أحد أن يستخلص منهم عشيراً ، وما يكون له بين ظهرانيتهم صديق إلا إذا كان يرّبي جرو كلب . ولعمري لو أن مالطياً افتري على غريب وخاصمه لتألّبوا على الغريب من كل أوب ، من دون أن يعلموا السبب ، وهم مائلون بالطبع إلى البطش والفتك ، وإن كثيراً منهم لا يمشون إلا ومعهم سكاكين يخفونها في ثيابهم ، ومدخل العتاب بينهم مسدود ، فأول سبّهم قولهم يحرق دين القديس تيعك . ومن جهلهم أنّهم لا يفهمون ما المراد بالدين هنا فإنّ مرادفه عندهم في غير السبّ منقول من الطلياني ، والظاهر أن المسلمين حين ولايتهم عليهم كانوا يتلقّونهم بهذه التحية ؛ فتداولوها هم من بعدهم . ومنهم قوم يتنصّتون إلى ما يجري بين المرء وصاحبه أو زوجته من الحديث ، فإذا صحّ

(81) زنّ فلاناً بخير أو شر : اتهمه به . والنغول : أولاد الزنى . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

## في الإنكليز و حكومتهم في مالطة

### تساهل حكومة الإنكليز في مالطة

لما كانت هذه الصخرة البحرية عزيزة على الإنكليز لموقعها في بحر الروم كما لا يخفى كان لهم في حكومتهم بها من التساهل والتسامح ما لم يكن في بلادهم ، ويمكن أن يُقال : إن الحكم هنا مالطي ، وان يكن الحاكم إنكليزياً فإن القضاء وفقهاء الشرع وكتاب الصكوك والمتوظفين في الدواوين وشرطة الديوان جميعهم مالطيون ، وليس على الناس مكس ولا ضريبة ، ولا يدفع مكس في الكمرك إلا على الخنطة والمسكرات والبهائم وهو قليل جداً .

ومن اقتنى مركباً أو خيلاً أو استخدم خدمة فلا يؤدي على ذلك شيئاً ، وكذا الذين يبيعون بقول الأرض وثمرها ، وليس لخزنة الدولة من إيراد هذه الجزيرة ولا فلس واحد ، وإنما يصرف جميعه في لوازمها وجملته تبلغ تقريباً 104,200 وتفصيلها من ديوان الكمرك نحو 65,700 ، ومن الدكاكين 1,600 ، ومن المحاكم 2,700 ، ومن بوسطة المكاتب 180 ، ومن تقييد الصكوك 130 ، ومن خراج الأرض 23,700 ومن المزداد 200 ، ومن الكرنتينة 3,350 ، ومن المراكب 3,900 ، ومن مصالح آخر 1,700 . يصرف منها مرتب وظائف وسنويات 43,000 ، منها : 5,000 للحاكم ولحديقته 400 ، ولكاتب سره ، وهو من الإنكليز 1,000 ، وللكاتب الثاني 500 ، ولناظر الخزنة 350 ، ولمدير الحسابات 600 ، ولأستوفي الأموال 500 ، ولناظر الكمرك مثلها ، ولكبير القضاة 600 ، ولكبير الشرطة 450 ، ولناظر المرسى 400 ولناظر الكرنتينة 300 ، ولقسيس الحاكم 500 ، ولأسقف مالطة 2,000 ، وللمصروف على المستشفيات وغيرها من الأفعال الخيرية 4,400 ، وعلى المدرسة الجامعة وقد تقدم ذكرها 2,700 ، وعلى المرتزقين والمتقاعدین 13,250 ، أمّا مصاريف عسكر الإنكليز وهم ثلاث كتائب ، فمن





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

سعر الشيء الواحد متفاوتاً على قدر تفاوت الساعات ، وأن تطوف السكارى في الأسواق ضاجين زائطين بالغناء واللغط ، ثم يُقال : إن ذلك حرية؟ لعمري إن المحتسب في بلادنا خير من هذه الحرية لأن الحرية إنما تكون حميدة مفيدة ما إذا روعي فيها مصلحة عمومية على أخرى خصوصية لا بالعكس ، فتباً لحرية تُفضي إلى تسويد اللثيم على الكريم .

وهذا الفساد الحاصل في البيع والشراء في مالطة هو بعينه في لندرة كما سنذكره في محله ، وسببه أنه لما كان ذروا الأحكام هنا وهناك لا يأكلون سوى أطيب المأكول ولا يشربون سوى أفخر المشروب غفلوا عن مصلحة الجمهور وظنوا أن سمنهم موجب لصحة جميع عباد الله . ومن فساد الأحكام هنا أيضاً أنه إذا كان لأحد حق على آخر وأراد سجنه لزمه أن يقوم بمؤنته ، وإن يكن المديون لصاً أو متعدياً ، وكان المحق عادلاً فاضلاً . ولا يخفى أن في ذلك حظراً للثقة والائتمان لأن حبس الغريم لا ينفع الدائن شيئاً ، وأن السجن لكثير من الأشقياء المناحيس خير لهم من خصاصهم<sup>(94)</sup> . ولما كان هولاء السفلة مفرطين في القبائح والشرور على ما ذكرنا كان من أهم الأشياء على الحر أن يتجنبهم ما أمكن ، وليس عليه أن يحترز من الأعيان وذوي الأمر والنهي فإنهم لا يتناولون على أحد لما يعلمون من قضية التسوية ، بخلاف العادة في البلاد الشرقية ، فإن أصحاب المناصب هم الذين يُخشى بأسهم وشرهم .

ومن فساد الأحكام أيضاً أن القضاة تقبل شهادة أي شاهد كان سواء كان سكيراً أو شريراً ، وكذا شهادة النساء والأولاد مقبولة فمتى قبل الشاهد الصليب مضت شهادته ، والإنكليز يحلفون على الإنجيل ، ومتى أقيمت دعوى حشد الناس لاستماعها وإن تكن من الأمور التي كتمها أولى من إذاعتها ، وهنا أيضاً أنكر التسوية لأنه إذا حدث مثلاً أمر مرة بين والد وولده ، أو رجل وامرأته وكانوا من ذوي الفضل وأفضى ذلك إلى التحاكم لا ينبغي أن يجعل بمنزلة دعوى رجل على آخر بأنه سرقه أو شتمه . ثم إن من الأصول المقررة عند الإنكليز أن كل من يدخل أرضاً تحت حكومتهم يصير حرّاً وتجري عليه أحكامهم ، وقد جاء مالطة كثير ممن كان لهم عبيد

(94) خصاص : جمع خصّ بضم الحاء : بيت من شجر أو قصب . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

## في موسيقى أهل مالطة وغيرهم

### الموسيقى: تعريفها، ضوابطها عند القدماء

قبل الدخول في هذا الباب الحرج ينبغي أن أستاذن أصحاب أهل الفن في التطفل على هذا النحو، وإن كنت لا أعدّ من جملتهم غير أنني علمت منه ما يمكنني أن أعرف المستقيم منه من غير المستقيم؛ فأقول قال بعض الفلاسفة: إن فن الموسيقى فضلة من المنطق أخرجها العقل بالصوت؛ لما لم يمكن إخراجها بالقياس. فمن أول المنطق بالاصطلاح قال: معناه أن أركان هذا الفن ذهنية بناءً على أن المتقدمين كانوا يتعاطونه بالسمع والذوق فيرسم السامع ما يسمعه من الأصوات في مخيلته وذاكرته دون مشاهدته لدلائله، وهكذا يتلقاه التلميذ عن معلمه بالترسم عن ظهر القلب والاتباع مع الملكة التي ترسخ في مخيلته تلك الترجيعات، ولهذا كان المعول عليه في تحصيل هذا الفن ملكة الذوق.

### موسيقى الإفرنج الآن

أمّا الإفرنج فقد جعلوا الآن ترجيع الصوت وإيقاعه داخلاً تحت حسّ المشاهدة؛ فدلّوا عليه بنقوش ورسوم معلومة كما دلّت الحروف على المعاني، فلم يكن تحصيله متوقفاً على ذاكرة وعظيم معاناة كما في السابق، فمن كان منهم عارفاً بمخارج النغم، ورأى تلك العلامات أمكن له أن يُخرج عليها أي صوت كان من دون أن تتقدّم له سابقة فيه وإذا اجتمع منهم عشرون رجلاً وكانت أمامهم تلك النقوش رأيت منهم متابعة واحدة.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

والبيات والحجازي لا يُنكر أيضاً ، ثم أعود فأقول : لا غرو<sup>(100)</sup> أن يكون قد فاتهم أيضاً بدائع في هذا الفن ، كما فاتهم في غيره أشياء أخرى ، وذلك لكثرة بحور العروض عندنا ، وكبعض محسنات الكلام ، وكالسجع في الكلام المنثور إذ ليس عندهم سوى المنظوم وهو في الإنشاء كالصوت المطلق في الغناء ، فإن السجع مقدّم على النظم ، وكعجزهم أيضاً عن لفظ الأحرف الحلقية . وقد سألت مرةً أحد أهل الفن منهم فقلت : إن المقامات موجودة عندكم وعندنا على حد سوي<sup>(101)</sup> وكذا أنصافها ، فبقي الكلام على استعمالها ، فإننا لو استعملنا مثلاً نصفاً من الأنصاف مع مقامه ، وأنتم تستعملونه مع مقام آخر ، بحيث يظهر لنا أنه خروج ، فمن أين تعلم الحقيقة؟ . فما كان منه الا أن قال : إن هذا الفن قد وضع عندهم على أصول هندسيّة لا يمكن خرمها ؛ فلا يصح أن يُستعمل مقام إلا مع مقام آخر ، على أنني كثيراً ما سمعت منهم خروجاً فاحشاً على شغفي بألحانهم . وقد شاقني يوماً وصف المادحين إلى سماع قينة بلغ من صيتها أنها غنت في مجلس قيصر الروس ، فلما سمعتها طربت لرخامة صوتها ، وطول نفسها في الغناء إلا أنني سمعتُ منها خروجاً بحسب ما وصل إليه إدراكي . ولو تيقن أن ألحان الروم التي يرتلون بها اليوم في كنائسهم هي كما كان يُتغنّى به في أيام الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلاً آخر على قصور ألحان الإفرنج ؛ فإن أنغام الروم مقاربة لأنغامنا .

الخامس : إن أكثر أصحاب الآلات عندهم لا يحسنون إخراج أنصاف النغم وأرباعها ما لم تكن مرسومة لهم ، إلا صاحب الكمنجة ، فأما الناي ففيه خروق شتى غير السبعة ، لكل اثنين منهما طباقه ، إذا سدّ منها منخر جاش منخر ، غير أن الصنعة في إحكام سدّها واستعمالها تقارب صنعة تغيير نقل الأصابع عندنا ، وهذه الأنصاف والأرباع في النغم

(100) لا غرو : لا عجب . (م) .

(101) السواء ، والسوى : المثل والنظير . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

وأصواتهم كلّها من أزوارهم ، وكأنّ المغنّي منهم يغني وقد غصّ بلقمة ، وجميع الإفرنج يقولون : إن غناء العرب من خياشيمهم . وعلى فرض تسليم ذلك فما يكون منافياً للإشجاء والتطريب ، فإن اللغة الفرنسيّ لا يُتكلّم بها إلا مع الغنة ، وهي مع ذلك أشجى لغات الإفرنج جميعاً ، وربّما طرب لها من سمعها أول مرّة من عمره . وقد رأيت من الإفرنج من كان يطرب للأنغام المصرية ولكن غبّ طول مكث بمصر ، وكان في أول أمره بأنف منها ويقول : إنّها محزنة ، ولا يخفى أن للعادة تأثيراً في جميع الأحوال وخصوصاً في المنطق والألحان ، وناهيك أن الأطفال عندنا وعند الإفرنج ترقد على الغناء ، فتعتاد عليه مُد الصبي ، فإذا امتزج بأمزجتها كان سماع غيره ضد المألوف ، وأهل مالطة يرقدون أطفالهم على ما هو أشبه بنواح الندّابات في بلادنا . ولولا العادة لما عجزت الإفرنج مع حكمتها عن النطق بأحرف الحلق<sup>(103)</sup> ، وهي التي وفّت حقّ نساءهم جزافاً وبخست نساءنا حقهن .

---

(103) حروف الحلق هي : حروف الهجاء التي تخرج عند النطق من الحلق وهي : الهمزة والهاء ، والعين

والحاء ، والغين والحاء . (م) .





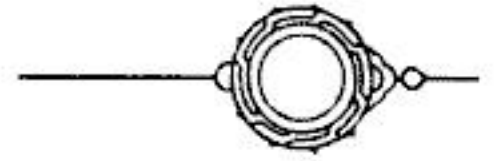
You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

تتبلبلُ الألبابُ في تركيبها  
ويكلُّ عنها كلَّ حدِّ لسان  
أذنبها ورؤوسها عربية  
فسدت وأوسطها من الطلياني

فإن قيل : إن الأذنب والرؤوس هنا كناية عن أوائل الألفاظ وأواخرها كأداة المضارعة وال التعريف ونون الوقاية ، وهذه باقية على الأصل ، فلم وصفتها بالفساد؟ قلت إن أداة المضارعة مكسورة عندهم على كلِّ حال ، وكذا أداة التعريف ، والضمير غير ظاهر ، فإنهم يلفظون به كالواو ، ويحتمل أيضاً أن يكون (فسدت) دعاء في المعنى . ومع كثرة ما بقي عندهم من مفردات العربية وجملها وتأليفها ولا سيما في الأمور المتعارفة كما ذكر ، فقد ذهب عنهم مرادف الأب وإنما يقولون (مسار) بالإمالة وكأنها محرّفة عن (موسيو) بالفرنسيس ، فإن حقَّ التلفظ بها أن يكون (مونسيور) ، وكذلك ذهبت عنهم كلمة التحية صباحاً ومساءً ، فيقولون : (بون جورنو عليك) ، ولعلَّ سبب ذلك أن المسلمين لما افتتحوا جزيرتهم كانت التحية بينهم (السلام عليكم) وكان استعمالها مقصوراً عليهم كما هو في بلادنا ، فلم تعرف بين الأهلين . وليس هذا بأعجب من ذهاب تحيات العرب العاربة عن المستعربين ، وقولهم الآن (صباح الخير) الظاهر أنه مولد .

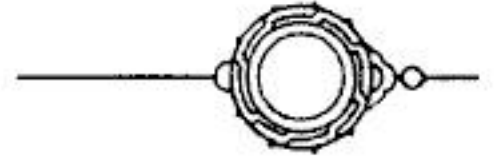
ومن الغريب أن بعض أعيان المالطين يحاكون الإفرنج في أطوارهم وهيئاتهم حتى إذا نطقوا بلغة أنفسهم زال عنهم ذلك الرواء ، وانجلى ذلك الإبهام ، وإذا تكلموا خلطوا جملة إيطاليانية بأخرى من لغتهم لكن هذه هي الغالبة فإنها لغتهم في الطفولة ، وقد أخبرني أحد فضلائهم أنه أقام مدةً طويلةً في إيطالية فكان حينئذ يقدر خواطره وأفكاره بلغة أهلها ، ثم لما رجع إلى مالطة لم يلبث أن عاد إلى تقديرها بلغته ، فصدق عليه قول الشاعر :

كل امرئٍ راجع يوماً لشيئته  
وإن تخلَّق أخلاقاً إلى حين



## موقفهم من العربية

وأغرب منه أن المالطيين بأنفسهم من تعلم العربية بسبب المثلية بينها وبين لغتهم وهو عين السبب الذي يوجب عليهم لكونهم والحالة هذه لا يعانون في تعلمها مشقة وعناء، ومع أن المالطيين الذين يعاملون أهل العربية كثير، والقاطنين في بلادهم هم أكثر فما أحد منهم يهتم أن يتعلم العربية قراءة وكتابة، على أنك تجد في جميع بلدان أوروبا أفراداً يدرسونها حقّ دراستها.



## مناقشات وردود

ثم إن آراء الناس لما كان من شأنها التفاوت والتباين في جلاء الحقائق ولاسيما إذا كان محل البحث غير منتسق على وتيرة واحدة، وكانت اللغة المالطية تشتمل على ألفاظ من لغات مختلفة اختلفت فيها الأقوال والأحكام، فزعم بعضهم أنها فينيقية لوجود كلمتين فيها منها وهما (البير، والصيد) كما مرّ بك في أول هذا الكتاب، وزعم آخرون أنها حبشية لوجود لفظة واحدة فيها وهي (المنبر)، فإن معناها عندهم الكرسي الذي تلد عليه المرأة كما هو في الحبشية، وهو وهم على ما تحقّقه من أهل اللغة المذكورة.

وعلى فرض صحة ذلك فلا ينكر أحد أنّ كثيراً من الكلام العربي الذي بقي في أهل مالطة مستعمل بطريقة المجاز إمّا بذكر اللازم وإرادة الملزوم، وإمّا بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلاً: وحلت للوقوع في الأمر الصعب، وأصله الوقوع في الوحل خاصّة، ونحو الطلاب للمتكفّف<sup>(105)</sup>، وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب في كل أمر ونحو مغلوب للنحيف وهو اسم مفعول من غلب، وهو لازم له غالباً، وفتيت أي قليل، وهو من فت الشيء إذا كسرتة وصغّرت جرمه، وأشباه ذلك ما لا يُحوج

(105) تكفّف السائل: بسط كفّه في المسألة فهو متكفّف. (م).

إلى برهان ، فيكون المنبر على هذا كما عدل به عن وجه استعماله تجوّزاً ، كما أنه عدل به أيضاً في العربية الفصحى من التعميم إلى الخاص ، فإن معنى المنبر في اللغة الارتفاع ، فالمنبر على هذا آلة الرفع ، أو محله ، ثم خُصّص عند قوم بمحل الخطبة وعند غيرهم بكرسي الولادة ، وإنما قلت آلة الرفع أو محله فقد قام الإمام الخفاجي على شرح درة الغواص ما نصّه : «هذا تحقيق بديع لما فيه من الفرق بين اسم الآلة التي تتناول باليد وغيرها ، فيتعيّن كسر الأول إلا شذوذاً فيفتح بعض من الثاني كمرقاة و منارة لأنه من وجه آلة ومن وجه مكان ، وهو فرق لطيف قلّ من تنبّه له أو نبّه عليه .

والحاصل أنه لا شك في كون المالطية عربية ، ولكنني لست أدري أصل هذا الفرع أشامي هو أم مغربي؟ فإن فيها عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية ، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى ، فيقولون مثلاً : (القُدّاس ، والقديس ، والتقربن ، والأسقف ، وما أشبه ذلك) مما لا يفهمه أهل المغرب . ومن المالطيين من يقرّ بأن لغتهم غير فينيقية ولا حبشية ولكن لا يكادون يقرّون بأنها فرع العربية مكابرة وعناداً .

ولا يخفى أن كل لغة في العالم لا بد وأن يدخلها بعض ألفاظ أجنبية إما للحاجة إليها ، أو لتقارب أهل اللغتين واختلاطهما كالعرب والفرس مثلاً والرومانيين واليونانيين في الزمن السابق .

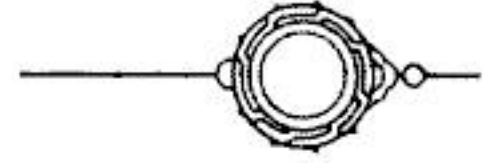
وهذه اللغة العربية مع سعتها وغزارة موادها وكثرة تصاريفها لم تخل عن ألفاظ بعضها من الفارسية ، وبعضها من اليونانية ، وبعضها من الحبشية والهندية والسريانية والعبرانية . ولم يقل أحد إن العربية فرع عن هذه اللغات ، فكيف لعقلاء مالطة أن يقولوا : إن لغتهم فينيقية بسبب وجود كلتين منها فيها؟ وأقبح من ذلك أنهم يظنون أن فساد لغتهم وانعكاسها عن أصلها العربي ليس من العيب في شيء قياساً على أن الطليانية انفسخت على اللاتينية واستقلت بصيغ خاصة بها دون الأصل وهو مدفوع بأن العربية لم تنقض دولتها بعد كما انقضت اللاتينية حتى تستقل المالطية بقليل موادها ، وبأن المالطية لم يؤلّف فيها شيء إلى الآن من كتب العلم والأدب ، ولم يتكلم بها أقوام ، فالفرق واضح ، والحاصل أنهم لا يرون فسادها ولا يشعرون بقبحها



ضرورة أنهم لم يطلعوا على محاسن أصلها الذي حُثُّوا<sup>(106)</sup> عنه .

نعم إن أهل الشام ومصر والحجاز وغيرهم قاصرون عن اللحاق بأهل العربية الفصحى ، ولكن ما منهم إلا من يشعر بقصوره عنها ، ويدري عظم التفاوت بين الطرفين ، وكلُّ يودُّ لو يصل إلى درجة الكمال في معرفتها ، وكنت ذات يوم سائراً مع جماعة منهم فأخذ أحدهم يصف لغتهم ، وجعل من محاسنها اجتماع الألفاظ العجمية فيها كأنه يقول : إنها انتقت ما شاق وراق فمثلها مثل العجوز التي رأت زوجها يزني .

### تعصّب المالطين ضد العرب



ولشدة تعصّب المالطين على أهل العربية وتشنيعهم عليهم ، إذ كان منتهى السبّ عندهم أن يقولوا عربي ، كان الإنكليز وسائر الإفرنج أقرب منهم إلى تعلّمها غالباً ، ولو كان عند أولئك ركن منها عظيم ، وذلك أن المالطي العنيد إذا سمع في العربية مثلاً لفظة خرج ، وكانت عادته منذ نطق أن يقول خرج فلا يرى في ذلك كبير فرق ، ولا يرى أن نقطة صغيرة تقوّم المعنى أو تفسده بخلاف من يتعلّم من أول الأمر أن يقول الكلمة على حقّها . وكانوا إذا سمعوني وصاحبي نتكلم قالوا ليس من فرق كبير بين اللغتين إلا عجمة في لغتهم يعنوننا ، ولا يخطر لهم ببال أن لغة لم تُضمّن بطون الأوراق ، ولم تضبطها الأحكام النحوية لا تكفي النوع الإنساني .

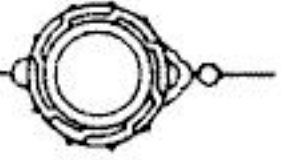
وقد تصدّى مرّة أحد مؤلفيهم إلى تأليف كتاب نحو فيها ، فكتب بعد طالعتة : «ألف بتو اللغة المالطية» ، ثم ذكر العين بعد الألف ، فكان خلفاً لأن جميع اللغات التي تبتدئ بهذا العنوان تكتب فيها الباء بعد الألف ، فلمّا وقفت على ذلك كتبت له :

يا قائل الألفاً بثُّو  
وبعد ألف عين

(106) حثُّوا عنه : انفصلوا ، وبانوا . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



## في الإبدال وجوازه

وقال الاشموني عند ذكر الإبدال : الشين أبدلت من ثلاثة أحرف : الكاف ، والجيم ، والسين . فالكاف نحو أكرمتك قالوا أكرمتش ، وهي كشكشة تميم كما تقدم ، والجيم كما في قوله إذ ذاك حبل الوصال مدمش أي مدمج ، قال ابن عصفور : ولا يحفظ غيره ، وسهّل ذلك كون الجيم والشين متفقين في المخرج . إلا أنه يظهر أيضاً أن الجيم كثيراً ما تُبدل من القاف والكاف مما يؤيد مذهب أهل مصر ، فمن إبدالها من القاف قولهم : قَفَّ العشب وَجَفَّ والمقذاف والمجذاف ، وقلمه وجلمه ، والقشم والجشم ، وشق وشج ، والقرقس والجرجس ، وقصّ وجزّ ، وتلقف الحوض وتلجف ، والشرق والشرح ، ونظائر ذلك كثيرة . ومن إبدالها من الكاف قولهم كد وجد ، وكهد وجهد ، وأكن وأجن ، وكرع وجرع ، وكلبة الزمان وجلبته ، والمكالحه والمجالحة ، وعكر به وعجر ، والركس والرجس ، وما أشبه ذلك .

فعلى هذا يكون استعمال أهل مصر له صحيحاً ويؤيده ما ورد في المزهري في النوع الرابع عشر قال : المهمل على ضربين ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتة ، وذلك كجيم تؤلف مع كاف ، أو تقديم كاف على جيم ، وكعين مع غين أو حاء مع هاء .

وأيضاً فإنهم يعرّبون مرّةً بالجيم وأخرى بالقاف ، مثال الأول : الديزج والنبريج ، ومثال الثاني : الرستاق والفرزدق . وربّما أبدلت من الحرفين معاً كقولهم سهجة وسهكه وسحقه . والذي يظهر لي أن ذلك لغة لبعض العرب ، غير أن أهل الصعيد والمغاربة وأهل الحجاز ينطقون بها كأهل الشام .



## عودة إلى نطقهم الحروف

ثم إن أهل غودش ينطقون بالأحرف الحلقيّة على حقّها إلا أنّهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون : مكسور ومفتوح ، ويضمون ما قبل الألف نحو قاعد ، وهلم جرا . ويقولون منكم وعليكم بكسر الكاف ، وهي لغة ربيعة ، وقوم من كلب كما في



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



زود ، فقال لأصحابه ما يقول؟ قالوا يقول : عَجَل ؛ فقال ألا يقول : حي هَلْكَ؟ وعلى حي هَلْكَ تخرج أحجية بديعة . ويظلمك أصله : إمَّا يزمك ، أو يضمك وما قبل الضمير المنصوب مضموم ، وهذا من بعض آثار محاسن العربية القديمة في هذه البلاد ، والباءُ من المحبة مفتوحة فتحة مشبعة ، وكذا هي في كل مكان به علامة التأنيث نحو طيبة وكبيرة ، وهي أيضاً من تلك الآثار ، وأحسن من الإمالة ، فأماً تعي فقد خبط فيها بصراؤهم خبط عشواء وذلك لأنهم يدخلون بين المضاف والمضاف إليه لفظة تا فيقولون مثلاً : الدار تا الطبيب . فمنهم من زعم أنها من الطليانية فإن المضاف فيها يفصل عن المضاف إليه بلفظة دي ، ومنهم من زعم أنها من السريانية فإنها فيها كذلك ، ثم إذا أضافوا تا إلى الضمير برزت معه العين فيقولون تاعنا ؛ فلهذا لم يدركوا أصلها ، والصحيح أنها محرّفة من متاع فإن أهل المغرب يدخلونها كثيراً في الإضافة ويبتدئون بالميم ساكنة على عاداتهم من الابتداء بالساكن ، وتقصير اللفظ ، وربما قالوا نتاع بالنون ساكنة أيضاً .

فأماً العين فإن المالمطين لا يكادون ينطقون بها إذا وقعت آخر الكلمة فيقولون : تلا وقلا في طلع وقلع كما ذكرنا أنفاً ، ويحذفونها أيضاً فيما إذا اتصل به ضمير فيقولون طليت وقليت جرياً على حذفها بغير اتصال الضمير ، وقلب العين ألفاً أو همزة من أساليب العرب كما في تفصى وتفصع ، وأقنى وأقنع ، والشما والشمع ، وتكأكأ وتكعكع ، وزقاء الديك وزقاعه ، وزأزأ وزعزع أي حرك ، وبدأ وبدع ، وامرأة خُباء وخبعة ، أي تختبئ تارة وتبدو أخرى ، والخباء والخباع ، والخبء والخبع ، ونظائر ذلك كثيرة حتى قلبوها أيضاً متوسّطة كما في تارّض وتعرض ، ودأم الحائط ودعمه . فأماً تليين الهمزة ألفاً فأشهر من البينة عليه .

ومن حرّف أيضاً لفظة متاع أهل مصر فقلبوالميم باءً ، وهي لغة لبعض العرب كما في درة الغواص ، فيقولون : با اسمك في ما اسمك . واعلم أن فصل المضاف عن المضاف إليه بأداة أسلوب حسن يفيد التنصيص ، وذلك ما إذا كان المضاف منعوتاً بنعت صالح لأن يعود على المضاف إليه أيضاً ، كما في «عذاب الله العظيم» ، بخلاف ما لو كان بينهما فاصل ، والأرجح رجوعه إلى المضاف كما في المغني .

ومن نظم المالمطين أيضاً ، وهو معنى حسن ، ولكنه مكسوّ قبيح اللفظ والسبك :

المحبوب تا قلبي سافر  
ليلي ونهاري نبكيح  
جعلتو بدموعي البحر  
وبالتنهيدات تا قلبي الريح  
وهو يشبه قول لسان الدين الخطيب :

والبحر قد خفقت عليك ضلوعه  
والريح تبتلع الزفير وترسل  
ومثله قول القاضي الفاضل :

كأن ضلوعي والزفير وأدمعي  
طلولٌ وريحٌ عاصفٌ وسيلٌ  
وقول إبراهيم بن سهل الإشبيلي :

إذا أنست ركباً تكفل شوقها  
بنارٍ قراه والدموعُ بورده

ومثله ما ذكره علي بن ظافر في بدائع البدائه :  
«شراعها من فؤادي وبحرها من دموعي» .

وبقي هنا إصلاح فاسد اللفظ : فنقول قد مرّ شرح تا أنها تكون بين المضاف والمضاف إليه ونبكيح الحاء مبدلة من الهاء وهي لغة للعرب أيضاً ، فيقولون : المليه والمليح ، والهاضوم والحاظوم والمده والمدح ، وتاه وتاح ، وشقه النخل وشقحها ، وقوله البحر محرّكة جار على القياس من أن الاسم الثلاثي الذي أوسطه حرف حلق يجوز الفتح فيه نحو : شَعْرٌ وشَعَرٌ ، ونَهْرٌ ونَهَرَ . قال الإمام الخفاجي في شرح درة الغواص : قال ابن جنّي في المحتسب قرأ سهيل بن شعيب السهمي جهرة وزهرة في كل موضع محرّكاً ، ومذهب أصحابنا في كل حرف ساكن بعد فتح لا يحرك إلا على أنه لغة فيه كالنهر والنهر والشعر والشعر . ومذهب الكوفيين أنه يجوز تحريك الثاني لكونه حرفاً حلقياً قياساً مطرداً كالبحر والبحر . وما أرى الحق إلا معهم .

وتما أنشدني أحدهم بمحضر جماعة :



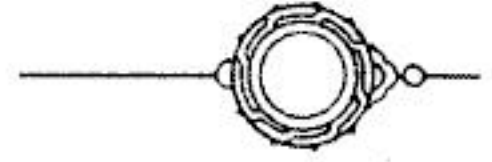
You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

عاقبة ، وكالباقية كقوله تعالى : ﴿ فَبَلَّغْ لِي خَبْرَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾<sup>(108)</sup> أي بقاء ، وكالكاذبة كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾<sup>(109)</sup> أي كذب . وأهل الشام يقولون : يطلع بالطالع ، وينزل بالنازل . ومن ذلك وزن فعل بالضم نحو سدد وصرر وهو نادر ، والأسماء الثلاثة التي أوائلها ضمة يتبعونها ضمة أخرى نحو عُمُر وشُغْل وهو أيضاً جارٍ على القياس . وكذلك التي أوائلها كسرة نيتبعونها كسرة أخرى نحو عَجَل ورجل .

### من قبيح عاداتهم في الكلام



ومن قبيح عاداتهم في الكلام هم وسائر الإفرنج توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون محاشاة ، فيقولون مثلاً : إني أحبك ما دمت حياً ، وهذا الحر يقتلك ، وهذا النبات يقطع لك مصارنك أي مصارينك ، وهذا التراب يعميك ، وإذا مت جاء الطبيب وشرح جسمك عضواً عضواً ، أو يقول لك العائد لا تله عن دائك فإنه قتال ، وغير ذلك مما يقتضي فيه الإطلاق ألا ترى ما قاله سيد الفصحاء والبلغاء حبك الشيء يعمي ويصم ، ولم يقل يعميك ويصمك وإن يكن المعنى عليه .

فأما إمالة صوتهم عند الكلام ، هي التي تسميها الإفرنج امفازس ، فغريبة على من لم يتعود سماعها فإن لهم مداً في الصوت ، وخفضاً غير مألوف لأهل العربية حتى إن الإنكليز المولودين بمالطة يجرون هذه الإمالة في لغة أنفسهم انعداء من المالطين ، وقد يُعدُّ هذا النوع عند الإفرنج من لوازم الفصاحة ولكن ليس كالذي يجريه المالطيون فإنهم فيه مشطون ، وهو يكاد أن يكون في العربية مفقود الاسم والمسمى أو لعله هو اللهجة ، وقد لاحظت في أثناء قراءة المشايخ أنهم كانوا يمدون صوتهم عند التباس المعنى تروياً فيما يستقبلونه ، فكان هذا المدّ ضرب منه .

ومما يُضحك أيضاً أن للمالطين لازمة في الكلام يكرّرونها وهي سميتش محرّفة

(108) الآية 8 من سورة الحاقة . (م) .

(109) الآية 2 من سورة الواقعة . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

## القسم الثاني

المسمى بكشف المخبا عن تمدن أوروبا



## من مالطة إلى إنكلترا

### مسيئة

أقول بعد الحمد لله إنه في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثاني يوم من أيلول سنة 1848 سافرنا من مالطة إلى إنكلترا ، وبعد نحو ساعتين غابت عنا أرضها ولكن لم أقل كما قال الشريف الرضي :

وتلفتت عيني فمذْ خَفِيت

عنا الطلُولُ تَلَفَّتْ القَلْبُ

وبعد خمس ساعات ظهرت لنا أرض جزيرة صقلية ، وفي نحو الساعة الثامنة من صباح الغد أرسينا في مرسى مسينه ، وكان فيه يومئذ بوارج ملك نابولي لحصار البلد ، فكانت تطلق المدافع عليه ، ويأتيها جوابها من القلعة ، فلذلك لم نقم بها إلا بعض دقائق .

### صقلية

ويقال إن سكان صقلية الأقدمين كانوا من إسبانيا ، وكان يُقال لهم سيكانني ، ثم قدم إليها الأطروسكان من إيطاليا في سنة 1294 قبل الميلاد ، ثم استوطنها الفينيقيون واليونانيون ، ثم جاء القرطاجنيون واستولوا على الجزيرة كلها إلى أن أخرجهم منها الرومانيون ، وفي سنة 821 للميلاد فتحها المسلمون وجعلوا مقرَّ الحكومة في بالرمو ، ولبثوا فيها مائتي سنة إلى أن أخرجهم منها الأمير روجر الروماني . وفي تاريخ الروانيين لغيبون أنها فتحت في زمن المأمون في سنة 823 ، وزعم بعض المؤرخين أنها كانت متصلة بالأرض ففصلتها الزلازل المتتالية .



## نابولي

وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين بلغنا نابولي ، وهي مدينة ظريفة مشهورة بكثرة العواجل والملاهي والحظ والمنتزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة . وفيها عدّة كنائس حسنة ، وأحسن طرقها حيث الحوانيت العظام الطريق المسمى توليدو . ولولا أنّ مملكة نابولي عرضة للزلازل لكانت أحسن بقاع الأرض لخصبها واعتدال هوائها .

## شيفتافكيه

ثم سافرنا منها في ذلك اليوم فوصلنا إلى شيفتافكيه في صباح الثلاثاء فأقمنا فيها ساعات ، وليس فيها شيء يقرّ العين .

## ليفورنو

ثم سافرنا منها يوم الثلاثاء وقد تزوّدنا بعض فاكهة فوصلنا إلى ليفورنو في صباح الأربعاء ، وظاهر هذه المدينة للناظر دون ظاهر نابولي لكنّها من داخل أكبر ، وطرقها أوسع وبنائها من الأجر المحكم وديارها شاهقة إلا أنّها ليس لطرقها ممشى على الجوانب للناس ، وكذا هي مدينة نابولي ومرسى ليفورنو حسن ، وفيها ملهى وعدّة أعلام ومدارس<sup>(110)</sup> لليهود يُقال : إنه أعظم مدارس لهم في أوربا ، ومكتبة موقوفة وهي ذات أشغال ، وتجارة أهلها نحو (76,000) وفي القرن الثالث عشر لم تكن إلا قرية حقيرة .

(110) المدارس : موضع دراسة الكتب الدينية ، والأعلام : المناثر . (م) .

ثم سافرنا منها إلى جينوى فبلغناها فجر الخميس ، وهذه المدينة مشهورة بكثرة الصروح العالية والديار الشاهقة جداً ، وفيها قصور كثيرة من المرمر ، وبساتين ناضرة وفاكهة طيبة ، وهي في نجوة<sup>(111)</sup> من الأرض متفاوتة<sup>(112)</sup> الوضع ، وطرقها أضيق من طرق ليفورنو ، ولهذا كانت عواجلها أقل من تلك ، إلا أن الشمس لا تستحكم في مسالكها لكثرة شرفات الديار المائلة ، فكأنها مبنية من أصلها لحجب الشمس . وفيها حوانيت بهيجة ولاسيما حوانيت الصاغة ولها قنطرة قديمة شاهقة جداً إذا نظرت منها إلى الحضيض هالك ارتفاعها . وفيها الفاكهة الطيبة ، والخبز النظيف ، ومحل قهوة في غيضة أنيقة ، وهي في الحقيقة نزهة للناظرين وما أشبهها إلا بدمشق ، وليس على من يدخلها إن يدفع شيئاً .

### لمحة تاريخية

كان تأسيسها في سنة 707 قبل الميلاد ، وكانت في زمن دولة الرومانيين حافلة غناء . وفي القرن الحادي عشر امتدت تجارتها بحراً وبراً ، وفي مدة الحروب الصليبية صارت مضاهية لفينيسيه في الغنى والثروة حيث كانت مورداً للعساكر التي كان يُراد تجريدها إلى البلاد المشرقية ، ثم وقع فيها من الفتن والتحزب ما أضعف دولتها فدخلت في حماية دولة فرنسا ، ثم في عهدة شارل كان (أي كارلوس الخامس الشهير) فاستخلصها من الفرنسيين ، وصارت تتحزب مع إسبانيا عليهم ، وفي سنة 1796 استولى عليها الفرنسيين أيضاً وفي سنة 1800 حاصروهم فيها الإنكليز والروس وعساكر أوستريا حصاراً ديداً فاضطروا إلى تسليمها ، ثم رجعت إلى عهدة فرنسا . وفي سنة المهادنة وهي سنة 1814 سُلمت لملك سردينية .

(111) في نجوة من الأرض : في مرتفع . (م) .

(112) في الطبعة الأولى : متفاوتة الوضع : وهي الأصوب . (م) .



## مرسيلية

ثم سافرنا منها يوم الخميس بعد الظهر فبلغنا مرسيلية في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة ، ولهذه المدينة مرسى عظيم يسع ألفاً ومائتي سفينة ولا يزال مشحوناً بالبواخر . ولكثرة ورود المراكب إليها قطعوا خليجاً من البحر ووصلوه به . وفيها عدّة مكاتب وملهى يُعدُّ من أحسن ملاهي أوربا ، وبستان للنباتات ، ومكتبة موقوفة ، ومصرف فسيح أعني البورس<sup>(113)</sup> . وفي ضواحيها أكثر من خمسة آلاف دار ، ولها تجارة واسعة مع المشرق وإفريقية وأميركا وإنكلترا والبحر الأسود ، كان تأسيسها في سنة 599 قبل الميلاد ، وكانت في الزمن القديم ملحقة بولايات الرومانيين ومنها توصلوا إلى فتح فرنسا .

وفي هذه المدينة محال عظيمة للقهوة مغطاة حيطانها ، وسقوفها بالمرايا والنقوش والتماثيل ، وأمامها مصاطب يقعد عليها الناس ، وإن لم يشتروا شيئاً منها . وأهل المدينة يصرفون فيها أكثر أوقاتهم كل طبقة منهم تنتاب منها محلاً خاصاً . وفي بعضها ترى قياناً حسناً يغنين وهنّ كاشفات الصدور ، وعند ملهاها عدّة ديار تسكنها المومسات يستدعين الغادي والرائح ، وهي وسخة الحارات والأطراف لكنها بهيئة الحوانيت والديار مبلّطة الطرق . وليس في ديارها مراحيض وإنّما يجمعون أقدارهم في وعاءٍ إلى أن يأتي رجل معه عجلة وعليها برميل كبير فيناولونه الوعاء فيفرغه في البرميل . وما يجمعه فيه فإنه يبيعه لتدميل الأرض ، ولا أعرف مدينة أخرى بهذه الصفة ، ومنهم من يقذف بالأقدار أمام البيوت ليلاً فهذا يشم الماشي في أكثر طرقها رائحة كريهة ، وماؤها في بعض الديار أجاج ولعدم الاكتفاء به نهروا إليها نهراً كبيراً من مسافة نحو ستين ميلاً ، فأحوج ذلك إلى أن ينقبوا له بعض الجبال ، ثم بنوا عليه جسراً عظيماً يشتمل على نحو ثلاثة صفوف من القناطر بعضها فوق بعض ، وفي كلِّ صفٍّ خمسون قنطرة ، وارتفاع عليها من الحضيض نحو مائة وعشر أذرع ، وعرض الماء الجاري فيه تسع أذرع ونصف في علوّ مثلها ، وجميع أحجار هذا الجسر

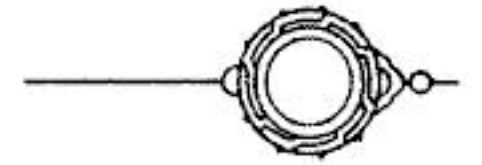
(113) يقصد سوق الأوراق المالية (بورصة) . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

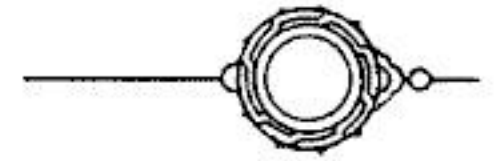
بين الأجم ، والسبب في تكثيرها احتياجهم إلى الوقود بخلاف بلاد الإنكليز فإن أكثرها سهول ومروج وحقول لاستغنائهم عن الحطب بفحم الحجر ، وفي فرنسا الجنوبية تنبت جميع الأشجار المعروفة عندنا ، وذلك كالتين والبردقان والعنب والزيتون والليمون مما هو معدوم في بلاد الإنكليز ، غير أن كروم العنب عندهم لا تبلغ في النمو والكبر كروم الشام . وفي مسافة الطريق دخل الرتل في قبوة مظلمة منقورة في الصخور فسار فيها نحو عشر دقائق فكان أمراً عظيماً لمن لم ير مثله من قبل .

## مدينة ليون



ثم بلغنا مدينة ليون بعد سفر نحو أربع ساعات لم يغب فيها عن أبصارنا ذلك المنظر الأنيق ، وهذه المدينة وسخة الطرق غير أنها حسنة الموقع ، وحوانيتها واسعة عظيمة ، وفيها معامل لثياب الحرير والقماش ، وحريرها مشهور . فأما الشريط ونحوه فإنه يصنع في صنت اتيان ، ولها مماشٍ حسنة ، وملهى عظيم ، ومكاتب عديدة ، ومدرسة ملوكية ، ومحكمة جليلة هي من فاخر البناء ، ومكتبة موقوفة ، ومتحف ، وبستان للنباتات ، وعدد أهلها (330,000) وفيها يجتاز نهران أحدهما يقال له : رون والثاني صون تسير فيهما بواخر مشحونة بالبضائع والميرة تمر على جملة مدن من بلاد فرنسا ، ثم يلتقيان ويصيران نهراً واحداً ممتداً إلى بحر مرسيلية ، ولا تكاد تمضي سنة من دون أن تزخر شواطئه على الأرضين ، وقد طغى في هذه السنة حتى كانت الناس تسير في شوارع المدينة في قوارب ، فهدم كثيراً من البيوت والجسور ؛ وأهلك كثيراً من المشية والناس وأتلف الغلال فيما جاوره ؛ فانتخى سائر سكان فرنسا إلى إمدادهم وإغاثتهم ، واقتدى بهم الإنكليز أيضاً . وعلى هذا النهر جسور من حديد وحجر وعدة مغاسل للنساء .

## في الطريق إلى باريس



ثم سافرنا منها في الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء في حافلة المجد المعروف



بالدليجانس<sup>(114)</sup> فبلغنا برجاً في الساعة السادسة من اليوم الثاني ، ومنها سافرنا في سكة الحديد إلى باريس فوصلنا إليها في الساعة الرابعة من صباح الخميس ، وسيأتي وصف هذه المدينة بعد فراغي من وصف إنكلترا إن شاء الله ، وإنما أقول هنا إننا لما وصلنا إليها كانت السياسة جمهورية إذ كانوا قد خلعوا الملك لويس فيليب عنالمملك ففرّ بنفسه وأهله إلى بلاد الإنكليز ملجأً الفارين ، ومأمن القارين ، ومهما حصل فيها وقتئذ من الشغب وسفك الدماء فلم يكد الإنسان يتميّز المفجوع من أهلها من المغبوط ؛ فإن منتزهااتها لم تزل حافلة بالناس . ثم بعد أن لبثنا يومين في باريس سافرنا في سكة الحديد إلى كالي أو كالس وذلك في الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأربعاء الواقع في السابع والعشرين من أيلول ؛ فبلغناها في الساعة السابعة مساءً .

## كالي

وكالي هذه إحدى فرض فرنسا المقابلة لإنكلترا ، وهي دون بولون ، وكانت سابقاً تحت استيلاء الإنكليز أيام حروبهم مع الفرنسيين ، وبقيت في أيديهم مائتين وثلاث عشرة سنة ، ثم استرجعها الفرنسيين في عصر الملكة ماري سنة 1558 ، فلما بلغها الخبر أظهرت الحزن الشديد ما قيل إنه كان سبب موتها وقالت : أموت وفي قلبي اسم كالي مكتوباً . فكانت كالي عندها أخت حتّيعند الفراء . بقيت نورماندي وانجو ومين وطورين وبواتو وبريتاني وغيرها بيد الإنكليز نحو سنة 292 .

## في الطريق إلى لندرة

وأوفق لنا أن باخرة معدة للسفر إلى لندرة فركبنا فيها وسارت ماخرة بنا ، وأول ما دخلت في نهر التامس انحجبت عنا الشمس واكتسى الجو سحاباً ، وكان يوماً ماظراً مظلماً يقضي بالأسف على شمس مالطة ، وهذا النهر يختلط بالبحر الملح وتسير فيه

(114) الدليجانس : مركبة عمومية فرنسية تجرها الخيول . (م) .

السفينة نحو خمس ساعات إلى لندرة ، والسفر فيه بهيج من جهة أن السفينة تسير فيه سيراً خفيفاً لا اضطراب فيه ، وترى فيه من البواخر الصاعدة والمنحدرة ما يشغل الخاطر ، وله عند الإنكليز شأن عظيم . ويحكى عن الملك جامس الأول الذي ألحق حكومة مملكة سكوتلاند بإنكلترة أنه لما نقم على أهل لندرة أشياء أنكرها أراد أن ينتقل ديوانه منها فقال له ضابط البلد - ويقال له بلغتهم مير- : إذا كان لا بد من ذلك فلا تنقل نهر التامس معك . وهو كلام بليغ يشير إلى إن أهل المدينة ربّما يستغنون عن الملك بوجود هذا النهر لأنه من أعظم الأسباب الميسرة للتجارة ، ولولاه لما حصلت لندرة على هذه الثروة والسعة .

والمأكول والمشروب في هذه السفن ، التي تنقل الركاب من فرض بلاد فرنسا وأكثرها للإنكليز ، غاليلان جداً ، فإن قنينة الشراب في تلك الفرض تساوي فرنكاً وفي السفن ستة فرنكات ، وقس على ذلك .

ثم لما بلغنا لندرة أخذت أثقالنا إلى الكمرك ، وفتشت فلم يجدوا فيها ما يوجب الأداء ، إلا أنا أدينا على كل صندوق وكل حاجة مستقلة نحو خرج وغيره نصف شلين ، ثم تبوأنا محلاً في إحدى الديار ، وبعد أن استرحنا سافرنا منها في سكة الحديد إلى بلدة «وير» بقصد المسير منها إلى القرية التي يسكن فيها الدكتور لي الذي اعتمده الجمعية لأن يكون معارضاً ترجمتي بالأصل الذي أترجم منه .

## الدكتور لي

وكان للمذكور شهرة عظيمة عند الإنكليز في معرفة اللغات الشرقية ، وكان في مبدأ أمره نجاراً لكنّه أكبَّ على العلم ، وقد فات الثلاثين سنة ، فحصل معلومات غير يسيرة ، غير أنه لم يتمكن من اللغات التي حاولها ، وسيأتي ذكره بعد هذا .

## البحث عن الطعام

وحيث كان اسم القرية المذكورة مكتوباً على أثقالنا فلما بلغ الرتل إليها وضعوها



في الموقف ، ونحن لم نشعر بذلك ، وبقينا سائرين فيها حتى إذا وقف مرة ثانية سألتها فأخبرنا بأننا تجاوزناها بنحو ثلاثة أميال ، فرجعنا إليها مشاة فوجدنا حاجاتنا سالمة ، فسرتُ في طلب شيء للأكل ، فلم أجد فيها مطعماً ، فقلت لأحد الوقوف : ألا نجد طعاماً هنا؟

قال : هلمّ معي . فأخذني إلى الجزار ، وذلك لأن مرادف لفظة الطعام عندهم يستعمل غالباً في اللحم .

قلت : إنني أريد شيئاً أكله ؛ فدلّني على حانوت بقربه ، فتوجّهت فلم أجد إلا الخبز . قلت : ما الخبز وحده أريد . فدلّني على دكان آخر ، فذهبت فوجدت به الفطير فقط ، فعدت خائباً ، ولقيت بعض الشرطة فقلت له : ألا تهديني إلى محل للأكل؟ فدلّني على موضع زعم أنه شهير يقصده جميع المسافرين ، فتوجّهت فوجدت صاحبتة امرأة ضخمة فظة تحاول إظهار السيادة والإمارة في وجه قاصديها ، فسألتها : هل عندك ما يؤكل؟ قالت : ما عندي سوى البيض ، فتبّلغنا بما عندها ، ورجعنا إلى الموقف حتى جاء الرتل الذي يسير إلى رويستان وهي قرية جامعة . وقد ذكرت هذه الحادثة هنا دليلاً على ما يُرى من الفرق بين بلاد الإنكليز وفرنسا ، فإن القرى الحافلة في هذه ولا سيّما التي يقف فيها المسافرون يوجد فيها كل ما يشتهي الإنسان من المأكول والمشروب ، وحين كنّا نساfer فيها وتقف حافلة المجدّ كنّا نرى النساء يتسابقن إلينا حاملات لأطباق الفاكهة الطيبة ويعرضنها على السّفَر ، وكنّا نجد أيضاً في المطاعم كلّ ما تشتهيهِ الأنفس .

## الوصول إلى بارلي

ثم سرنا إلى رويستان ومنها إلى قرية بارلي وهي على بعد ثلاثة أميال منها ، فبلغناها في الساعة الحادية عشرة ليلاً ، فتوجّهت إلى دار الدكتور لي فوجدته مستعداً لتلقّي الأحلام السعيدة ، فقال لي : قد كتبتُ إليّ الجمعية تخبرني بقدمك ؛ فينبغي أن تذهب الليلة لتبيت في خان القرية . فبتنا فيها ، وفي الغد كتب إلى الجمعية يخبرهم بأنّه أكرم مثواي ، وعُني بإنزالي منزلاً مريحاً ؛ فشكروه على عنايته .



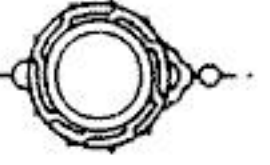


You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



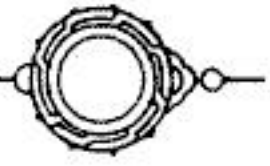
You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

## الشروع في ترجمة التوراة



ثم إنني أخذت في أن أذهب إلى الدكتور لي في كل يوم لأترجم التوراة ثم أعود إلى منزلي ملازماً له ، فلم تمضِ عليّ أيام حتى عَيْلَ صَبْرِي ؛ لأنّ هذه القرية التي قدّر الله أن أسعد الناس بترجمتي فيها كانت من أنحس قرى الإنكليز ، على أن جميع قراهم لا تليط بقلب الغريب لما سيأتي .

## متاعب الإقامة في القرية



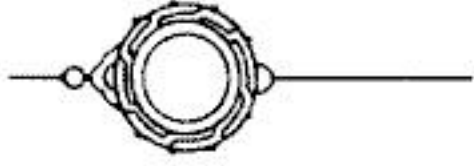
ولم يكن فيها للأكل غير اللحم والزبدة المخلوطة بالجزر ، والخبز والجبن واللبن المذيق والبيض والكرنب ، وذلك يغني عن ذكر ما هو معدوم فيها ، على أن هذه اللوازم إنّما كانت نفاية ما يوجد في المدن . ومن عادة الإنكليز أن يكون لهم بالقرب من القرى بليدة يُباع فيها ما يلزم لهم من المأكول والمشروب والملبوس والأثاث ؛ فيذهب إليها الفلاحون مرّة في الأسبوع ويشترون ما يلزمهم ، وقد يمرّ على البيوت ليلاً رجل ينفخ في البوق تنبيهاً على ذهابه إلى تلك البليدة فمن شاء أن يشتري شيئاً كلّفه به وجزاه على ذلك . وقد يمرّ أيضاً تجار بعجلات فيها نحو البن والشاي والسكر ، أو يكون معهم راموز هذه الأشياء ليعتثوا منها للمشتري من حوانيتهم . وبمثل هذه الأسباب المتنوعة والصعوبة المبرحة يحصل الإنسان ما لا بدّ له لقوام عيشه .

أمّا محار البحر والسرطان والإنكليز ، وهذا الذي يسمّونه «لبستر» ، وهو أطيب ما يؤكل عندهم ، وهو في شكل البرغوث وأكبر من السرطان فلا وجود لها البتّة . وأمّا السمك فلا يرد منه إلى مرّة في كل ثلاثة أشهر ، على أن جميع أصناف سمكهم مسيخة<sup>(115)</sup> إلا صنفاً منها يقال له : سمن ، وهو طيب لكن لا بالنسبة إلى سمك بلادنا<sup>(116)</sup> . وقد يضعونه في الثلج ليلاً ويعرضونه للبيع نهاراً ، فربّما كان

(115) المسيخ من الطعام : ما لا طعم له . (م) .

(116) وردت العبارة في الطبعة الأولى على النحو الآتي : بالنسبة إلى سمك بلادنا لا طعم له . (م) .

عمر السمكة بعد صيدها أطول منه قبله . ولكن ربيب الثلج هذا لا وجود له إلا في المدن .



## الغنى والفقر في إنكلترا

ومن قدم إلى لندرة ورأى فيها تلك الحوانيت العظيمة والأشغال الجمّة والغنى والثروة حكم على جميع الإنكليز بأنهم أغنياء سعداء ، ولكن هيهات ؛ فإن أهل القرى هنا كأهل القرى في الشام بل هم أشدّ قشفاً . وكثيراً ما تقرأ حكايات تدلّ على بؤسهم ، وقشف معيشتهم ممّا لا يقع في بلاد أخرى . فمن ذلك حكاية عن حائك شكّا حاله إلى إحدى النساء المخدمات فقال : «يا سيدتي إنني حائك وإن لي امرأة وثلاثة أولاد بقوا من عشرة فُجعتُ بهم ، ودخلي من كدّي الليل والنهار لا يزيد على سبعة شلينات في الأسبوع ، ولكن عليّ أن أعطي منها شليناً واحداً لأجل النول ، وأربعة في الشمع الذي أسهر عليه . فقالت له : وكيف تعيش على هذا الدخل القليل؟ قال : على قدر الإمكان . ألا وقد مضى علينا ستة أشهر لم نشتر فيها رطلاً واحداً من اللحم ، بل لا نقدر على مشتري الحليب إلا بالجهد ؛ فجلّ طعامنا إنّما هو الشعير وحساء الماء . وقد يكون لنا في بعض أيام الأحاد ادم من البطاطس . أمّا أنا فلا أبالي فإنني قد ألفتُ البوسَ ، والفضنك ، ومد سنين عديدة لم أعرف شيئاً من الدنيا سوى الكدّ والكدح المبرح على قلة الأجرة ، ولكن همّي بالأولاد ، وبأمّهم النحيقة .

فقوله : إنّه لم يقدر على شراء الحليب مع كونه في الريف أرخص الأشياء بالنسبة إلى غيره يغنيك عن مزيد البيان فيما يكابده هؤلاء الناس . وكثيراً ما تقرأ أيضاً في صحف الأخبار عن أناس تركوا أولادهم من الإملاق ، أو ماتوا من الجوع والبرد ، أو النوم على الأماكن القذرة ، أو اعتقدوا<sup>(117)</sup> فماتوا جوعاً . نعم إنه يوجد مستشفيات وملاجئ يقوم بها الأهلون إمداداً للفقراء والعاجزين ونحوهم إلا أنها ربّما كان عدد من فيها لا يقبل الزيادة ، أو كان اللبث فيها ضنكاً أو الدخول إليها صعباً ونحو ذلك .

(117) اعتقد : أغلق بابه على نفسه ، لا يسأل أحداً حتى يموت جوعاً . (م) .

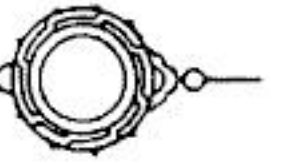
وقد يبلغ من فقرهم أنهم يتركون أطفالهم بغير معمودية لئلا يعطوا القسيس مصروفها . وأعرف في القرية المذكورة أولاداً كثيرين لم يتعمّدوا مع أنهم من رعية الكنيسة المتأصلة التي توجب المعمودية ولا تأذن لمن مات غير معمّد أن يُدفن في مدافنها فتنزله منزلة المنتحر .

### سبب فقر الفلاحين



وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الأرض قد دحاها الله تعالى لأن تكون ملك الأمراء والأشراف فقط ، فيستاجرها منهم أناس مأمونون ، ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها ، ولهذا لن تجد في القرية أحداً ذا رُواءٍ ورياشٍ إلا مستأجر الأرض ، وقسيس القرية على أنه لا يلي شيئاً من أمور أولاده الروحانيين سوى الخطبة فيهم يوم الأحد لأنّه يستخدم تحت يده قسيساً يعطيه نحو ثمانين ليرة في السنة ، ويلقي عليه أحمال الكنيسة ، وهذا المبلغ هو دون وظيفة طبّاخ الأسقف في بلاد الإنكليز ، فعلى هذا القسيس أن يعمّد أولاد الرعية ، وأن يدفن الموتى منهم ، ويزوّج أحداثهم ، ويعود مرضاهم وغير ذلك .

### نمط عيش الفلاحين



وعدد مُلاك الأرض في إنكلترة نحو ستين ألف عيلة لا غير ، وقلّما يذوق هؤلاء المساكين اللحم ، فجلّ أكلهم الخبز والخبز ، فجزّار القرية لا يذبح شاة أو بقرة إلا مرّة في الأسبوع ولا يبيع من اللحم إلا نصف رطل أو ربهه ، وإذا ذبح شاة فلا يسلخها ويجزر لحمها إلا بعد يوم ، والبقرة بعد يومين أو ثلاثة . نعم إنّه قد يرَبّي أحدهم خنزيراً في دويرته ويذبحه ويتخذ لحمه كالقورمة<sup>(118)</sup> التي تُتخذ في برّ الشام ، ويطعم

(118) القورمة : لحم يطيخ بشحمه مملحاً ، ويحتفظ به إلى وقت الحاجة ، حيث يُستعاض به عن اللحم



منه في أيام الأحاد . ومن كان ذا يُسر قليل اشترى قطعة لحم في يوم السبت وطبخها وتبلغ بها عامّة الأسبوع باردة ؛ إذ ليس تسخين الطعام مألوفاً عندهم فهم أحرى أن يأكلوه بائناً مذ أيام من أن يسخنونه ، ولما طلبت من المرأة التي كنت نازلاً عندها تسخين طعام بقي لي من الغداء لم تكذ تفهم مني إلا بعد شرح وتفسير ، وراح كلٌّ منا يتعجب من صاحبه .

وليس في القرى مواضع للهو والحظّ ، وإذا أرادوا اللهو عمدوا إلى أجراس الكنيسة يضربونها فتقوم عندهم مقام آلات الطرب . ومن الحظ عندهم أن يجلس الرجل مع امرأته ينظران إلى الخنايص التي يربّيانها أو إلى ما يزرعانه من خسيس البقول في عرصته ، فإن لكلّ منهم في الغالب بضع أذرع من الأرض أمام بيته يزرع فيها نحو الفجل والكرنب وما أشبه ذلك ولولا ذلك لكانت عيشتهم شراً من عيشة البهائم .

## صعوبة الحياة في الريف

وقد ترى في القرية دكاناً فيه نفاية ما يباع من الشمع والصابون والسكر والبن والشاي ، وبيتاً حقيراً يُباع فيه شيء من البصل والبطاطس والحلويات الرديئة والتفاح المسيخ تنظرها من طاقة البيت ، ولو اشتريت ذلك جميعه لما بلغت قيمته خمسين قرشاً . وفي أوان الشتاء لا يمكن للإنسان أن يخرج من منزله لاستنشاق الهواء وذلك لكثرة الوحل في الطريق فقد يمكث عدّة أيام رهين بيته . وليس في القرى خيل أو حمير أو بغال أو عواجل تُكرى فليس إلا مركوب النعل ، وقد يكون لبعض المتشبعين عجلة يحركونها بأرجلهم إذا أرادوا أن يذهبوا من قرية إلى أخرى فتجري بهم من دون حصان ولا حمار ، وبعضهم يكون له عجلة صغيرة مفتوحة يجري بها حصان صغير فمثل ذلك لا يدفع عليه شيء للميري ؛ فأما العواجل المعتادة ، والخيل فلا بد من الأداء عليها كما سيأتي بيانه في محله .

وكنت كلّما اضطررت إلى المؤنة ذهبت إلى البلدة ماشياً ، ومرة اضطررت إلى أن أذهب في التابوت الذي ينقل فيه الدمان<sup>(119)</sup> ، لكنّه كان فارغاً . وعلى فرض أن

(119) الدمان : الزبل . والتابوت : الصندوق . (م) .

يسكن غني إحدى هذه القرى فلا يمكنه أن يتنعم بغناه إذ لا يجد فيها إلا ما يجده  
 الفقير ، إلا أن يجلب مؤنته من لندرة وغيرها . ويعلم الله أنني مدة إقامتي في تلك  
 القرية المشؤومة لم يكن لي هم إلا بتحصيل لوازم المعيشة فكنت أجلب بعض  
 القطاني من كمبريج ، وبعض النقل من رويستان ، والمزر<sup>(120)</sup> من لندرة في سكة  
 الحديد ، ولكن لما وجدته غالباً اقتصرت عن جلبيه ، فاستولى عليّ ضعف المعدة ووهن  
 في ركبتي لم أحس به في عمري قط ، فإن مزر القرى رديء إذ ليس منه إلا ما ينبط  
 بالمنبطة دون المرعى في زجاج ، وهو كالدواء سواء إلا أنه غير نافع ، وقد غشي علي  
 مرة في دار دكتر لي وأنا أترجم ، فأمر خادمته بأن تتداركني بكسرة خبز مشوية .  
 أما الصيف فإنه وإن يكن غير مزهق إلا أنه منغص لعدم وجود البقول المرطبة فيه ،  
 ولعوز الفاكهة كما ستعلم ولا سيما أن أكثر شرب أهل الريف إنما هو من مناقع من  
 ماء المطر ، وأكثرها يعلوه الطحلب فإذا نشفت عمدوا إلى الآبار وهي قليلة يدخرونها  
 إلى الحاجة ، وهي أيضاً من المطر ، إلا أن الإنكليز قلماً يشربون الماء فإنهم يستغنون  
 عنه بالجة . وقد مضى علينا في الصيف نحو شهرين لا نذوق فيهما شيئاً من  
 الفاكهة والخضرة إلا ما ندر ، وفي شهر نيسان انقطع عنا المذيق الذي كنا نشتره  
 لأجل القهوة ؛ لأنهم كانوا يسقونه الخنازير ، ولا يبيعونه فاضطررنا إلى أن نتوسل  
 بإحدى النساء لتشفع فينا عند صاحبة البقرة في إمدادنا كل يوم بما يكفي للقهوة  
 فقط ، ففعلت ، ثم جاءت مبشرة لنا بقبول خالص شفاعتها في المذيق ، وأن صاحبة  
 البقرة رضيت بأن تبيعنا كل يوم بنصف بني تفضلاً وتكرماً فأوسعناها شكراً وثناءً  
 ومطأطأة رأس وانحاء ، وفي هذا الشهر المبارك لم يكن يوجد شيء من الفاكهة ، ولا  
 من البقول وكانت البصلة الصغيرة تباع ببني مع أن الحقول كلها كانت ناضرة زاهية ،  
 فالمار فيها هو كراكب البحر وهو ظامئ .

(120) المزر : نبيذ الشعير أو الخنطة . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

يُعجبني قول ابن المعتز في مليح جذر :

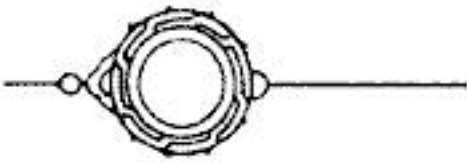
يا قـمـراً جـدراً لما اسـتـوى

فـزاده حـسناً فـزدنا همـوم

كأنه غنى لشمس الضحى

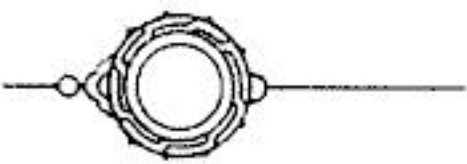
فـنقـطـه طـرباً بالنـجـوم

قلت وأهل اللغة أهملوا هذا الحرف بهذا المعنى ، والضمير في زاده يرجع إلى التجدير المفهوم من الفعل ، وهو ردّ على الحريري حيث منع أن يُقال جذر بالتشديد لكونه ليس للتكثير .



## أرض إنكلترا

أمّا أرض إنكلترا فكلّها سهل محروث مزروع تشبه أرض البقاع في الشام فلن ترى فيها بقعة واحدة بوراً ، فكأنّها جميعها لرجل واحد ذي عيال في كونها لا يغادر منها محطّ قدم من دون منفعة ، فلا ترى إلا غياضاً وحقولاً ومروجاً ودياراً . والظاهر أن بلاد الإنكليز أعظم حرثاً ، وأعمر من بلاد فرنسا وكل شيء فيها من نام وحيوان تراه في غاية الربيع والنمو . وكنت قبل حضوري إليها أحسبها كلّها جبلاً لما كنت أسمع من شدة بردها ، فإذا هي قاعٌ صفصف . وقرأت في بعض الأخبار أن قيمة ما تحصّل من غلالها في سنة 1847 بلغت 54,000,000 ليرة ، وقس على ذلك سائر السنين . وأحسن بقعة في الأرض يغادرونها مرعى للضأن ، ومسرحاً ؛ فلهذا كان لحم الضأن عندهم فاخراً جداً . ومع شدة عنايتهم بتربية الماشية فإنهم يحتاجون إلى جلب الجلود من الروسية والغرب الأقصى ، وثمان ما يجلبونه منها يبلغ في السنة 15,000,000 ليرة يذهب نحو نصفها في عمل الأحذية والباقي في غير ذلك .



## بين إنكلترا وفرنسا

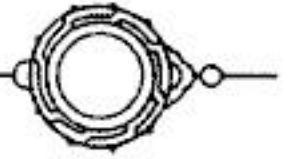
وفي بعض الصحف أن في كل من إنكلترا وفرنسا يُربي نحو خمسة وثلاثين

مليوناً من الغنم ، ومن كلّ من العديدين يحصل قدر من الصوف متساوٍ إلا أنّ غنم فرنسا يحصل من لحمها أقلّ ممّا يحصل من تلك ، وقد يبلغ الحاصل من إقليم شستر من الجبن مبلغ وافراً<sup>(122)</sup> ، وما يحصل من لبن البقر في فرنسا يبلغ مليون ليتر ، ثمن كلّ ليتر نحو عشرة من الصنتيم ، وما يحصل من لبن البقر في إنكلترا يبلغ ضعفي هذا القدر ، ويُباع بضعفي قيمة ذلك . والإنكليز يربون ثمانية ملايين من الماشية في أحد وثلاثين مليون جريب<sup>(123)</sup> ، والفرنسيين يربون عشرة ملايين في ثلاثة وخمسين مليون جريب .

وجزارو فرنسا يذبحون في السنة غالباً أربعة ملايين من الماشية تبلغ خمسين مليون كيلو غرام ، والإنكليز يذبحون مليونين ولا يذبحون من العجل قدر ما يذبح عند أولئك .

والحاصل في فرنسا من الحليب مائة مليون فرنك ، ومن اللحم أربعمئة مليون ، ومن الحرث مائتا مليون ، والحاصل في إنكلترا من الحليب أربعمئة مليون فرنك ، ومن اللحم خمسمائة مليون فيكون الحاصل من كل بقرة في إنكلترا من الحليب واللحم فقط أكثر من الحاصل من البقرة في فرنسا من اللبن واللحم والحرث معاً ، هذا ما نقلته وفيه نظر .

## ما يجلبونه من المأكول والمشروب



ومع خصب أرضهم ، وكثرة غلالهم كما بيّناه آنفاً ، فإنهم يجلبون كثيراً من المأكول والمشروب من البلاد الأجنبية فقد قرأت أنّه في مدّة ستّة أشهر جلبوا من البق 12,237 رأساً ، ومن الغنم 29,268 ومن البيض 56,454,745 بيضة ، وفي سنة 1850 جلب من الجبن 27,000 طن ، وفي سنة 1846 جلب من إيرلندا من البقر اثنان

(122) كذا وردت والصواب : مبلغاً وافراً . والعبارة وردت في الطبعة الأولى على النحو الآتي : وقد يبلغ

الحاصل من إقليم شستر من الجبن ما قيمته مليون ليرة . (م) .

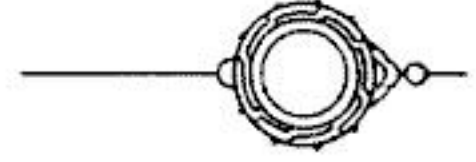
(123) الجريب : مكيال يزن نحو ستين كيلو غراماً . ويساوي في المساحة نحو 575 ذراعاً مربعاً . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

وهي تجري تحت مخشَّب البيوت ، وكذا البق لكثرة الألواح في منازلهم .  
 قال في أبجدية الأوقات : هذا الجرذ الأسمر الذي يُسمَّى جرذ نوردي غلطاً هو  
 أعظم رزئة في ديارنا ، وأصل مجيئه إلينا كان من بلاد العجم ، وبعض البلاد  
 الجنوبية في أسية كما هو الظاهر من كلام بالاس وغيره حيث قال : إنه في سنة  
 1729 زحفت أسراب جرذان لا تحصى من البراري الغربية إلى أسطراخان حتى لم  
 يكن ردها بوجه ما ، وفي أوسط القرن السادس عشر زحفت حتى دنت من باريس إلا  
 أن كثيراً من جهات فرنسا لم يزل خالياً من هذه البلية .

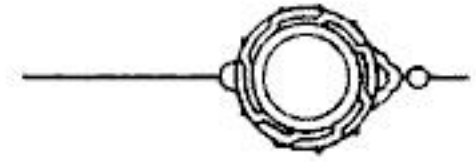
### فائدة في عمر الحيوان



قال بعض : إن الحصان يعيش من ثماني سنين إلى اثنتين وثلاثين سنة ، والثور  
 20 ، والبقرة 23 والحمار 33 . وأصل نتاجه في بلاد العرب والبغل 18 . والشاة من  
 الغنم 10 والكبش 15 والكلب من 14 إلى 25 والخنزير 25 والعنز والحمام 8 والقط 10  
 والوز 28 والببغاء من 30 إلى 100 واليمام من 50 إلى 200 . هكذا نقلته وهو غريب  
 فإن الحمام واليمام من جنس واحد .

وقال آخر : الدب يعيش 20 ونحوه الكلب والذئب والشعلب من 14 إلى 16  
 والأسد نحو 70 والقط في الجملة 14 والأرنب 7 سنين ، والفيل قد يعيش 400 سنة ،  
 والخنزير 30 والكركدن 20 والفرس من 25 إلى 30 والجمال نحو 100 والبقرة 15  
 والضأن قلماً يجاوز 10 سنين ، والوعل يُعمَّر طويلاً ، والدلفين 30 ، والنسر قد يعيش  
 104 سنين ، والغراب 100 والسلحفاة 107 ونوع من الحيتان اسمه والس ولعله  
 الدخس يعيش 1,000 سنة .

### بناؤهم ومساكنهم



أما بناؤهم فمن الأحمر أو الأبيض ، وقد يصبغون خارج الديار أو يكلسونه ،  
 ثم يرسمون عليه خطوطاً تبدييه كأنه حجارة مربعة متساوية لا يدركها إلا من دنا منها



وترسّمها<sup>(125)</sup> . وتبقى على ذلك سنين بخلاف بيوت لندرة فإنّها لما كانت هدفاً للدخان والضباب لم تلبث أن تسودّ كما سنذكر ذلك إن شاء الله . ولهم في تجديد الأبنية مهارة غريبة وذلك أنّهم إذا أرادوا مثلاً هدم دار هدموا أولاً أسفل جدرانها وأسندوا القائم منها بعضائد ، ثم بنوا الأسفل فربّما نجز الهدم والبناء في وقت واحد . وبعض البيوت يبنون خارجها كالسفينة من قطع خشب يعارضون بعضها ببعض ، ثم يطيّنونها وربّما كانت تلك الأخشاب قديمة . وفي الجملة فإن بيوت الفلاحين حسنة مهندسة ، غير أن منها ما يكون أصغر من سطحه ، فإن السطوح عندهم على ثلاثة أنواع : الأول من ألواح المكاتب التي يتعلم عليها الخط ، وهي للديار الكبيرة . والثاني : من الخزف ، وهو للبيوت الوسط . والثالث : من التبن ، فهذا يكون قبيح المنظر ، وهو يرقّع كما يرقّع الثوب ، ويقولون : إنّه أحسن من غيره شتاءً وصيفاً فإنّه في الشتاء يمنع البرد ويردّ الثلج ، وفي الصيف يمنع الحرّ .

ولا يكون السطح عندهم إلا مسنّماً . والفاصل بين ألواح الزجاج في الشبّابيك أكثره قضبان رصاص بدلاً من الخشب ، وربّما كان الزجاج مربّعاً أو مخمّساً فيكون للعين أنيقاً وحيث كان في السابق ضريبة للميري على الطيقان إذا زادت على ثمانية كان الناس يتحاشون من مجاوزة هذا الحد ، ولكنّه الآن أبطل تمتعاً بنور الله وهوائه ، ولكن قام مقامها ضريبة أخرى . وكل دار لا بد وأن يكون فيها عدة مواقد للنار ، وأسرتهم كلّها من خشب لا من حديد ، والغالب أن أرض منازلهم تكون مفروشة باللبد أو البسط من الزرابي ، وأثاثهم بين بين ، وقلّ أن ترى عندهم من الصور إلا صورة كبير العائلة ، وصورة الخيل في السباق أو صورة أرانب وكلاب .

أمّا بيوت الأغنياء والمترفين فلا شيء أجمل منها لإحكام بنائها ، وحسن ترتيبها وحيطانها من داخل مغطّاة بالورق الفاخر المنقش ، وطيقانها محكمة الوضع كبيرة قطع الزجاج وهو يقارب البلور في الصفاء والبريق ، ودرجها وأرضيتها من الخشب المتين ولهم إسراف زائد في الأثاث فإنّ أسرتهم وموائدهم وأصونتهم وكراسيهم وخزائن كتبهم كلّها من الخشب المسمى بالماهيكون ، وقد تبلغ قيمة ذلك في الجملة

(125) ترسّم الشيء : تبصره ، ونظر كيف هو . (م) .

نحو 500 ليرة ، ومع ذلك فلن ترى لسيدة الدار حلياً من الماس ، أو شالاً من الكشميري وهي عكس عادتنا . ومن إسرافهم أن يغطوا الدرج بالجوخ المنقوش ، أو الزرابي الفاخرة وفوقها الكتان النفيس يدوسون عليه . ومراحيضهم في غاية النظافة والترتيب حتى إن الفرنسيين إذا ذكروا مرحاضاً على هذه الصفة قالوا : إنه مرحاض إنكليزي . وكنت مرةً ضيفاً لأحد نجلائهم<sup>(126)</sup> فلماً أصبحت طلبت الكنيف فذلتُ عليه وإذا هو في غاية الزخرفة والإحكام حتى إنني أحجمت عن فتحه واستعماله ، وخطر ببالي حينئذ ما قاله بعض الظرفاء في نجيل أنفق على كنيف له سبعمائة درهم قد استدانها «ليت شعري ما الذي يريد أن يخرأ فيه؟» .

وإجارة المسكن للغريب إنَّما تكون بالأسبوع ولا بدُّ أن يخبر أهل المنزل قبل خروجه بأسبوع ، فإذا علموا ذلك تهاونوا في خدمته ، وإذا استأجر أحد مسكناً في دار من مستأجر الدار وفرشه وكان المستأجر لا يؤدي غلَّة الدار إلى مالِكها حقاً للمالك أن يستولي على كلِّ شيء في الدار . ثم إن البناء في الأصل كان من الخشب والطين ، ثم من الأجر ، ثم من الحجارة غير المهندمة . فلماً تمدَّن الناس وتبحرُوا في الصنائع صار من المرمر .

## تاريخ استخدام الحجر في البناء

والبناء من الحجر عرف عند أهل صور من القديم ، ثم اشتهر عند جميع الأجيال ، ولم يُعرف في إنكلترا قبل سنة 670 وكان المحدثُ له راهباً اسمه بناديكتوس . وأول جسر بُني منه في هذه البلاد كان في سنة 1087 . أمَّا البناء من الأجر فإنَّما عُرف عن الرومانيين . وفي سنة 1886 أمر ألفريد ملك الإنكليز باستعماله ، وفي سنة 1598 استحسن تعميمه . وكان بناءً لندرة إذ ذاك من الخشب غالباً . وأما الزجاج فيقال : إن أول من تعلَّم صنعته هم أهل مصر فإنَّهم أخذوها عن هرمس . وقال بلينيوس : بل كان اختراعه في سورية ، وكان له معامل في صور من القديم ، وقد ذكره الرومانيون

(126) في الطبعة الأولى : نجلائهم وهي جمع ناجل ونجيل ، وهو الكريم الأصل . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



النار والنور .

أمّا العاجزون والسَّقَط فإنَّهم يَمكثون في المستشفى ، ويقوم بنفقتهم القادرون من الرعيّة ، فإنَّ الحكومة لا تنفق شيئاً من المستشفيات ، ولا على تصليح الطرق ، ولا على ترتيب الشرطة أيضاً إلا أنَّ أكثر الناس يستنكفون من المكث في المستشفى كما ذكرنا سابقاً .

### فقراء الإنكليز

وقد تقرر عند الإنكليز جميعاً أن التصدّق على الفقراء يحملهم على الكسل والتواني ، فما يعطون فقيراً إذا مرّوا به ولو كان عرياناً اعتماداً على وجود هذه المستشفيات ، ويمكن أن يُقال : إنَّ أكثر فقرهم هو من انهماكهم في شرب المسكرات ، فإنك ترى منهم فقراء كثيرين بأخلاق من الشباب ومهما يكسبوه ينفقوه في الجعة ، ولا يزالون يكرعون منها حتى تجحظ عيونهم ، وتنعقد ألسنتهم عن الكلام ، ولا يزالون يلهجون بذكرها فهي عندهم في الشتاء للتسخين وفي الصيف للترطيب . ومع ذلك فهم بالنسبة إلى أهل المدن الجامعة أصحى وأعفّ ، كما أنهم أسخى منهم وأكرم ، وهذه خطةٌ عامّة في جميع البلاد ، فإنَّ أهل المدن لما كان احتياجهم إلى أسباب المعيشة والرفاهية أكثر كان الكرم فيهم أقل . وذكر الطبيب بوخان أنه عرف في زمانه نساءً بعنّ أولادهن بالجعة .

### من مفاخر الإنكليز

ثم إن الإنكليز طالما افتخروا بهناء العيش في ديارهم ، وهو عبارة عن أمرين ، أحدهما : التمتع بكل ما يلزم للإنسان في معيشته . والثاني : ترتيب وضع الأشياء المتمتّع بها ، وهو أن يكون لكلّ شيء موضع خاص به ولكلّ موضع شيء ، فمن غسل يديه مثلاً في طست على مائدة ، ثم تناول المنشفة من جانب المائدة من دون أن يغادر موضعه ، ويفتش عليها ؛ فقد اتّصف بأنّه متهنّئ ، وقس على ذلك . والحقّ



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

قولوسوس وصنم جوبيتر ، وقيل : إن جوبيتر هو هبل عند جاهلية العرب . قلت : ومن العجب في هذه العجائب أنهم لم يعدوا منها سدّ الصين ؛ فقد قال فلتير : إن دورته مسافة ألف وخمسمائة ميل ، مرتفعاً على جبال شامخة ومنحدرًا في أماكن وعرة المرتقى ، وعرضه في جميع هذه المواضع عشرون قدماً ، وارتفاعه أكثر من ثلاثين وهو أعظم من أهرام مصر في القدر والمنفعة . بناه أهل الصين حاجزاً بينهم وبين التتر ، وذلك في سنة 137 قبل الميلاد .

### هواء إنكلترا

أما هواء إنكلترا فإنه كثير التقلب يختلف في اليوم الواحد مرّات ، وبينما يكون الجو صاحياً والسماء نقيّة إذا بالغيم قد طبق الأفق وتراكم حتى تحسب أنها لم يكن شمس قط . وقد يبلغ درجات الهواء في يوم ثلاثين وفي غده خمسين ، ومع ذلك فلا يصح أن يُحكّم عليه بأنه وخيم ولا سيّما على من ألفه ؛ فإنّ الغالب على بنية الإنكليز الضلّاعة والشدة وإن كثيراً منهم يُعمّرون فوق المائة سنة . وفي مدّة ثلاث سنين مات في إنكلترا ووالس 266 شخصاً وعمرهم من المائة فصاعداً . ومات رجل في كورة «هولي وود» وقد بلغ من العمر مائة وثلاث عشرة سنة ، وبقي متمتعاً بجميع حواسه ، وأوصى وصيّة مبيّنة ، ولم يعرف المرض إلا قبل موته بساعة واحدة .

### الشتاء في إنكلترا

ومتى تمّ لهم صحو يوم تام رأيت الناس جميعاً يلهجون بحاسنه ويذكرون بهجته فهو عندهم عيد وموسم . وفي الحقيقة فإنه إذا انجلي الغيم ، وظهرت الشمس في الجو لم يكن شيء أبهج من ذلك ؛ فإن بلادهم كلّها مروج وغياض كما ذكرنا سابقاً . وقد ترى في الأشجار المتصافّة ألواناً مختلفة ، وترى الحقول كأنها بسط من سندس أخضر ، ولا يخفى أنّ هواء الرستاق والريف أصح وأسلم من هواء المدن الكبار التي يكثر فيها الدخان والعفونات والأقذار إلا أنه لا يمكن الخروج في الريف شتاء حين



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



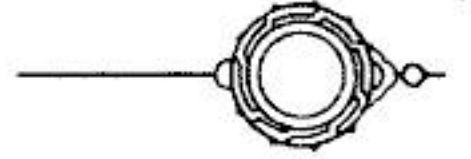
You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



مخلد ، فهنيئاً للمصطلين ، وطوبى للمستدفئين ، أليس أن عبادة النيران في بلاد  
الفرس نشأت عن البرد كما قال ابنُ صاره<sup>(134)</sup> في المعنى :

أحلّ لنا ترك الصيام بأرضكم  
وشرب الحميّا وهو شيء محرّم  
فراراً إلى نار الجحيم فإنّها  
أرقّ علينا من شلّير وأرحم  
لئن يك ربي مُدخلي في جهنّم  
ففي مثل هذا اليوم طابت جهنّم

### أثر المناخ في حياة البشر



ثم إنه لا يخفى أنّ أهل البلاد الحارة يكونون أذكى ذهنًا ، وأسرع فهماً من أهل  
البلاد الباردة ، إلا أنّهم لا يكون لهم جلد على الأعمال الشاقّة لغلبة الترهل عليهم ،  
ولا عظم همّة لمباشرة المساعي الخطيرة ، ولا يمكن أن يلحقوا أهل البلاد الباردة في العزّ  
والغنى ، إلا أن يكون لبعض البلاد مزية خاصة بوجود المعادن وغيرها كبلاد الهند  
مثلاً . أمّا سكان البلاد الباردة فيتحملون مشاق الأعمال ، ويستطيعون إدمان السعي  
ويُعمّرون أكثر ؛ ولهذا كان جُلّ الفاتحين والغازين من الشمال ، وكان جزيرة العرب  
مستثناة من هذا الحكم ، إلا أنّ أيامهم في الشتاء تكون قصيرة جداً ؛ فيضطرون إلى  
العمل ليلاً . وربما كُتبت<sup>(135)</sup> أيديهم من شدة البرد .

وفي كتاب منسوب إلى أرسطو : أن أهل البلاد الحارة يُعمّرون أكثر من أهل البلاد

(134) الأبيات السابقة لابن صارة وهو أبو محمد عبد الله بن صارة ، توفي سنة 507 بمدينة المرية

بالأندلس والأبيات يصف فيها البرد في جبل شلير الذي يقال له جبل الثلج في الأندلس أو جبل

البيرة ، وهو يُرى من أكثر بلاد الأندلس ، كما يرى من عدوة البحر ببلاد المغرب . (م) .

(135) كُتبت : ثخنت ، وغلظ جلدها . (م) .

الباردة ؛ لأن الحرارة الطبيعية يتأتى حفظها في الأولى أكثر من الثانية ، ولا أرى قوله مطابقاً للواقع إلا أن يُحمل قوله : البلاد الباردة على معنى : المفرطة في البرودة ، والبلاد الحارة على معنى المعتدلة في الحرارة .

## اختراع البارومتر

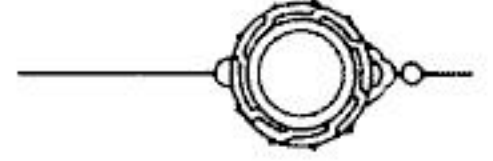
ولنختم الكلام على ميزان الهواء بما لا يخلو من فائدة فنقول : إن أصل اختراعه فيما عُلّم كان في إيطاليا . وفي سنة 1626 أَلّف سنطوريا الطبيب في بدوى كتاباً ، وادّعى فيه أنه مخترعه ، وادّعى أيضاً هذه الدعوى رجل من هولاند اسمه كرنيليوس دريبل ، وبعد البحث والتدقيق عُلّم أن الأول سبق إلى الدلالة على اتخاذه ، وأن الثاني عرف خواصه من قبل أن يسمع شيئاً عن ذلك .

## أيام السنة في مدينة أوروبية

ونقلت بعض الكتب أنه حسبت أيام السن في مدينة ويانه على مدة خمس وسبعين سنة ، فكان في خلال السنة من أيام الصحو 127 يوماً ، ومن المطر 110 ومن الثلج 135 ومن الرعد والبرق 19 . وأقول : إن هذا القدر من أيام الضباب هو أكثر مما يقع بلندرة فإن جلّه هنا إنما يقع في شهر تشرين الثاني .

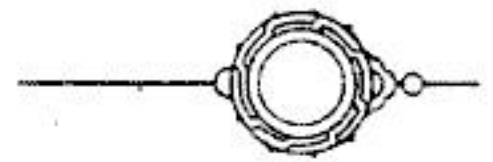
## المعادن في إنكلترا

أمّا معادن إنكلترا فأشهرها القصدير والصفير والحديد والفحم ، وهذان الأخيران أبقى وأنفع لهم من سائر المعادن النفيسة ، إذ لولاهما لم يتأت لهم إنشاء ألوف من البواخر ، ومن سكك الحديد ، ومن الغاز ، وغير ذلك . وليس كل البلاد التي فيها معادن الذهب والفضة أغنى من غيرها ، فإن من المعادن ما تقوم نفقة استخراجها بفائدته فلا يحصل منه إلا مجرد الافتخار بوجوده ، وإنّما العمدة على سهولة



## أماكن وجود الذهب

وأكثر ما يوجد الذهب في إفريقية ، ويابان ، وجنوب أميركا . وهذا الأخير عشر عليه الإسبانيول في سنة 1492 ومن ذلك التاريخ إلى سنة 1731 جُلب منه إلى أوربا ستة آلاف مليون شذرة<sup>(137)</sup> . قيمة كلّ منها ثمانية ريالات أميركانية ، ويكثر وجوده أيضاً في جبال أورال بالروسية . ويوجد منه معدن في كورنول ، وفي كلو بإرلاندا . وأكثر ما يأتي الإنكليز من الذهب فإنّما هو من أستراليا وكاليفورنيا قيل : إنهم يجلبون منه في كلّ سنة عشرين مليون ليرة . وأوّل من اطّلع عليه في الأولى إدورد هرغافس ، وذلك في سنة 1851 فاطّلع أرباب الحكم على ذلك طمعاً في الجائزة فأجازوه وولّوه خولية أرض الميري<sup>(138)</sup> . ومن جملة ما وجد فيه قطعة ذهب ابريز وزنت مائة وستة أرطال . ووجد أيضاً في موضعين منها إلى غاية تشرين الأول سنة 2,532,422 / 52 أوقية إنكليزية أو مائة وخمسة أطنان ، أي طنلاته ، وبلغت قيمة الذهب الذي بُعث منها إلى الخارج نحو تسعة ملايين ليرة ، ومن ذلك الوقت تتابع وروده إلى بلاد الإنكليز .



## أستراليا

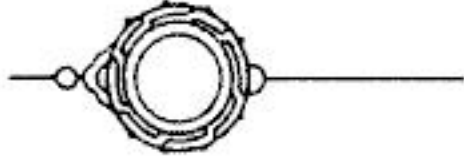
ويحتمل أن في أستراليا معادن أخرى وكنوزاً جزيلة لم تُكشف إلى الآن ، فمتى كُشفت تكون داعية لعجب أهل الدنيا . وهذه الجزيرة هي أكبر جزيرة في المسكونة ، وأصغر أرض قارة ، فإنّها دون أميركا بنحو ستة أضعاف . وكان استعمار الإنكليز إياها

(136) أوّشى الشيء إيشاء : استخرجه . (م)

(137) الشذرة : قطعة من الذهب تلتقط من معدنها . (م)

(138) يقصد بأرض الميري : الأرض الحكومية . (م)

بعد انفصال أميركا عن بلادهم . وفي سنة 1854 بلغ عدد أهلها 236,798 نفساً ، وهي أقل بلاد الدنيا إناثاً<sup>(139)</sup> .



## نبذة عن أميركا

فأما أميركا فأول من كشفها رجل من جينوى اسمه كرسطوفر كولمبوس ، وذلك في سنة 1492 قيل : إذا صارت مملكة الدول المتحدة في أميركا مأهولة كهولاند ، فتكون تسعُ تسعمائة مليون من الناس ، وهو نصف سكان المسكونة . وأهلها الآن سبعة وعشرون مليوناً<sup>(140)</sup> . وحين كان الإنكليز يبنون مجلس الشورى بلندرة كان الأميركيون مشغولين بتمدين بلادهم ؛ فأنشؤوا سبعة وعشرين ألف ميل وخمسمائة ميل لسكة الحديد<sup>(141)</sup> ، بلغت نفقتها نحو ثلاثمائة مليون ليرة ، وفي غضون ذلك أنشأ الإنكليز تسعة آلاف ميل كلفتهم نحو المبلغ المذكور . والذي ورد إلى خزنة الدولة في سنة 1857 من جميع موارده بلغ نحو ثمانية وعشرين مليون ريال ونصف مليون . وكان المبلغ الفاضل فيها نحو عشرين مليوناً . وبلغت مصاريف الدولة سبعين مليوناً وكانت محال البوسطة فيها في سنة 1827 سبعة آلاف ، وفي سنة 1837 / 11,177 وفي سنة 47 / 15,146 وفي سنة 57 / 26,586 وكان مواضع امتدادها طولاً في سنة 27 / 105,336 ميلاً وفي سنة 37 / 141,242 ميلاً وفي سنة 47 / 153,818 ميلاً وفي سنة 57 / 242,601 ميل . وفي المملكة المذكورة تسعة آلاف رتل لسكة الحديد ، وهو عبارة عن إجراء رتل واحد لكل ثلاثة أميال . ووجدت في كتاب آخر أن طول سكك الحديد في أميركا كان في سنة 57 / 21,466 ميلاً ، وأنه في سنة 1828 وهي

(139) وفي سنة 1880 بلغ عدد سكانها نحو 3,000,000 نفس .

(140) في هذه السنين تقدمت أميركا تقدماً غريباً حتى بلغ عدد سكانها الآن 52,000,000 نفس .

(141) وفي سنة 1880 صار طول سكك الحديد في أميركا 90,000 ميل ، وإيراد الدولة في السنة المذكورة

بلغ 333,000,000 ريال والمصاريف بلغت 260,000,000 ريال وعدد دواوين البوسطة بلغ 40.855

فانظر إلى هذا الفرق وتعجب .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



## ضرب الدنانير في إنكلترا

وقيل : إن أول ضرب الدنانير عندهم كان في سنة 1257 وأول ضرب الدنانير الراجحة المحكمة كان في سنة 1344 وكان ضرب الجيني في سنة 1673 وكان مبلغ ما ضُرب من النقود في أيام الملكة أليصابات 5,832,000 ليرة . وفي أيام جامس الأول 2,500,000 وفي أيام جورج الثاني 11,966,576 وفي أيام جورج الثالث 74,501,586 وفي أيام جورج الرابع 10,827,663 وفي زمان الملكة فكتوريا وذلك من سنة 1837 إلى سنة 48 / 39,886,457 . ويقال : إن ضرب الدراهم والدنانير من مخترعات أهل ليديا (من بلاد الأناطول) وذلك في سنة 862 قبل الميلاد ، أمّا الفلوس فذكرها أوميروس في سنة 1184 قبل التاريخ المذكور .

## الذهب وليونته

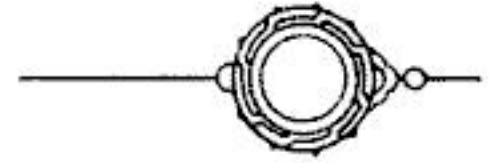
والذهب الإنكليزي فيه اثنان وعشرون قيراطاً من الذهب ، وقيراطان من النحاس . ويُقال : إنَّ حبة الذهب يمكن تقسيمها إلى ثمانية عشر مليون جزء ظاهرة ، ويمكن أيضاً تطريقها ومدّها حتى تصير خمساً وستين إصبعاً مربّعة ، وإنَّ الصفحة منها تصير إلى جزء من ثلاثمائة من أجزاء الإصبع . ويذهب بها حتى إلى جزء من عشرة ملايين . وأول استعمال خيوط الذهب كان في إيطاليا سنة 1350 ولما كان هذا الجوهر ألين جميعاً لجواهر وأصفاها كان لا يستعمل إلا مخلوطاً بالصففر أو الفضة .

## نقود الذهب والفضة

ونقلت من جرنال التيمس سنة 1852 أن مبلغ نقود الفضة والذهب في الدنيا بأسرها قيمته أربعمائة مليون ليرة . منها مائتان وخمسون مليوناً فضة ، والباقي ذهب . ونقلت من غيره أيضاً أن مبلغ الذهب الذي كان متداولاً في سنة 1848 في الدنيا بأسرها كان ستمائة مليون ليرة ، وأن الإمداد السنوي كان من ثمانية ملايين إلى

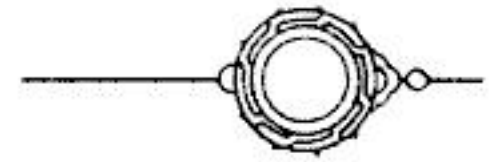
تسعة . وأنه لسبب كشف معدن الذهب في أستراليا وكاليفورنيا صار الذهب المتداول الآن يبلغ أكثر من ثمانمائة مليون . فمن كاليفورنيا خرج من سنة 1849 إلى سنة 1853 خمسة وستون مليوناً وتسعمائة ألف ، ومن أستراليا خمسة وثلاثون مليوناً وذلك من سنة 1854 إلى سنة 1856 .

## معدن الفضة



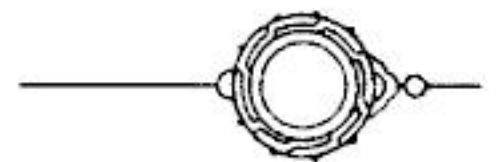
أمّا معدن الفضة فقيل : إن أحسن ما عُرف منه كان في في لاباز وذلك سنة 1660 فكان من لينه وحسنه يُقطع كالبُور . وفي سنة 1749 أرسلت قطعة منه إلى إسبانيا فبلغت 370 رطلاً ، وحفر عن قطعة في معدن بنورويج وأرسلت إلى مُتحف كوبنهاغن فبلغت 560 رطلاً ، وقيمتها 1,680 ليرة . وكانت أنية الفضة نحو الأقداح والمغارف تعدّ في سنة 1300 في بلاد الإنكليز من الإسراف ، ووجودها في البلاد المذكورة إنّما يكون مختلطاً بغيرها من الجواهر .

## معدن النحاس



أما معدن النحاس فقد مرّ ذكره في كورنول . ويقال : إن أعظم معادنه في مملكة السويد ، ويُقال أيضاً : إن الحبة من هذا الجوهر إذا حُلّت في ملح النشادر تجزأت إلى أكثر من اثنين وعشرين ألف جزء .

## معدن الحديد وتجارته عند الإنكليز



أمّا معدن الحديد عندهم فيستخرج منه في كلّ سنة أكثر من ثمانمائة طن . ويُقال : إنّه أول ما عُرف وجود الحديد كان على جبل ايداي وذلك في سنة 1432 قبل الميلاد ، وزعم اليونانيون أنّهم هم أول من عثروا عليه كما أن أهل فينيقية أول من عثر على الزجاج ، إلا أنّنا نعلم من التوراة أن أول من قان الحديد طوبال قاين .

وقال آخر : «إن تجارة الحديد في بلاد الإنكليز كما هي الآن من إبداع هنري كورت لأننا قبل سنة 1783 كنا نجلب جُلّ لوازمنا من الحديد المصنوع من سواحل بحر البلتيك ، ولم تكن طريقة لصنع هذا الجوهر الذي يصدق عليه أن يُسمّى جوهر الجواهر سوى تطريقه بمطارق ضخمة ثقيلة بعد إحمائه في فرن ، وهو أسلوب قديم يجري مع قدم أيام الخرافات ، وما عدا ما كان يتبعه من التعب والكلال فكان يلزم له أجم كثيرة لتفي بالوقود اللازم لإحمائه ، وحيث لم يكن عندنا منها ما يكفي كان لا بدّ لنا من استجلابه من الروسية والسويد حيث الأجم كثيرة ، والحديد سهل صنعه فيها بالنسبة إلى هذا الصقع وإلى سعره فيها . فكانت معادننا الجزيلة تبقى معطّلة إلى أن قام هنري كورت المذكور ، وأعمل فكره الثاقب في ابتكار طريقة جديدة تكثر بها منافع هذا المعدن ، وتقلّ الصعوبة في صنعه ؛ فأدّاه الاجتهاد والتبّحر إلى إحداث فرن هواء بواسطة لهيب النار المنبعث من فحم الحجر ، فكان يُحمي به الحديد وهو تبر<sup>(143)</sup> ويصفّيه ثم يجعله قصباناً مسبوكة من دون فحم ولا مطرقة . ولكن لم يتهياً له إتقان هذا الحمل<sup>(144)</sup> إلا بعد أن أنفق عليه عشرين ألف ليرة ، ومنذ ذلك الوقت استغنيانا عن حديد السويد والنرويج .

ثم لم تمض أربع عشرة سنة حتى صار ما يُصنع منه في بلادنا قدر ما كنا نجلبه من بحر البلتيك ، ثم صار ما يُصنع منه على هذا المنوال موازياً لمائتي ألف طن ، منها خمسون ألفاً تُرسل إلى الخارج . وهذا القدر هو ما كنا نفتقر إلى جلبه سابقاً من البلاد الأجنبية . وقد صنّع منه في سنة واحدة من هذه السنين المتأخرة في معمل بوالس أكثر مما كان يُصنع منه في المملكة بضعفين . فأعظّم به من اختراع يُعدّ من أعظم الأسباب الموجبة لثروة أهل هذه البلاد ، ولاستقلالهم بأعمالهم ؛ إذ لولاه لم يتأتّ إنشاء سكك الحديد ، والبواخر وغيرها . ولا يخفى ما في ذلك من المنافع فهو لنا بمنزلة إبرة المغنطيس لكشف الدنيا الجديدة . فما أجدرّ مخترعه بأن يُحسب ندّاً لواط ، وما أخلق بلادنا بأن تُظهر كونها ممنونة له على مرّ الأيام إلى أن قال : ومع أنّه

(143) التبر : المعدن قبل أن تتم تنقيته من الشوائب (خام) . (م) .

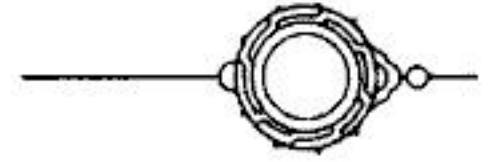
(144) كذا وردت ، وأحسبها : العمل . (م) .



أنفق في هذا العمل الجليل عشرين ألف ليرة ، ومهد لبلادنا طريقة فاقت بها على جميع الممالك ، لم تجازه على ذلك بل عاملته بالكنود<sup>(145)</sup> ، على أنه تحقق وثبت أن ما أكسبها من فوائد هذا الاختراع يبلغ ستمائة مليون ليرة ، وأفاد أيضاً مؤنة ستمائة ألف من الصنّاع .

وقد كان الرومانيون في الزمن القديم يصفّحون قعور سفنهم بالرصاص ، وكان ثمنه إذ ذاك أغلى مما هو الآن بأربعة وعشرين ضعفاً ، ويُقال : إن أحسن صبغ للشعر ، هو ما يُتخذ من الرصاص وهو في نفس الأمر سم .

### الفحم الحجري في إنكلترا

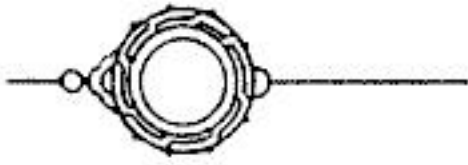


أمّا فحم الحجر فإن أهل بريطانيا الأقدمين كانوا يستعملونه ، وإن لم يذكر ذلك الرومانيون فيما ذكروا من أحوال هذه الجزيرة ، وأوّل كشفه كان في نيوكاستل بإنكلترا سنة 1284 وزعم بعض أنه قبل هذا التاريخ . وكان قد منع أولاً من استعماله بدعوى أنه مُضِرٌّ بالصّحّة حتى إن الحدّادين كانوا لا يوقدون إلا الحطب . وفي سنة 1381 اتُّخذَ كأنه صنف للتجارة ؛ فصارت الناس تجلبه من المحل المذكور إلى لندرة ، ثمّ عمّ استعماله فيها ، وذلك في سنة 1400 . فأما في جميع إنكلترا فلم يعم قبل سنة 1625 . و يوجد منه معدن في نورثمبرلند في سهل فسيح امتداده 723 ميلاً مربعاً ، وقريب منه سائر الأماكن . والموجود منه في والس فقط يكفي إنكلترا على المعدّل الذي يُنفق منه الآن ألفي سنة .

والمصرف منه في بريطانيا في كل سنة 25,000,000 طن . وفي سنة 57 وصل إلى مرسى لندرة 1,500 سفينة مشحونة بالفحم ، وبلغت كمية ما ورد إليها منه بحراً وبراً 4,368,708 أطنان . والمستخرج منه من درهام ومن نورثمبرلند يبلغ في السنة 14,000,000 طن يُصرف منها في لوازم لندرة 6,000,000 وفي لوازم البلاد الخارجية 2,500,000 وقدّر ذلك لأجل الغاز ، والباقي في مهمات أخرى .

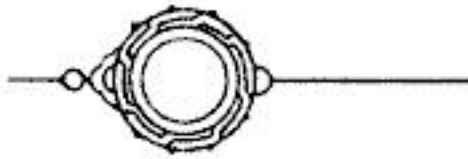
(145) الكنود : كفر النعمة ، وإنكارها . (م) .

وقال آخر يوجد في إنكلترة وإرلاندا 4,000 ميل مربع تحتوي على معادن فحم لم تكشف بعد ، ومسافة جريب واحد سمكه ثلاث أقدام يوازي ما يخرج من فحم 1,940 جريباً من الأجم والغياص ، ومعادن الفحم المفتوحة الآن في دربي تبلغ 240 معدناً يعمل فيها 20,000 نفس . ومعادن يورك شير 343 معدناً . ويوجد أيضاً في سكوتلاندا معادن كثيرة منها محفور ، ومها غير محفور .



### استخراج الفحم وإنتاجه في بعض دول أوروبا

وقيل : إن أصل استخراج الفحم كان في بلجيك في سنة 1198 ثم عرف في إنكلترة . والذي يخرج منها يبلغ خمسة أضعاف أكثر مما يخرج من غيرها من أي أرض كانت ، وما يُحصَّل من مسافة 1,275 كيلومتراً مربعاً من بلجيك يبلغ 5,000,000 طن ، وما يُحصَّل من 2,500 من القياس المذكور في فرنسا لا يزيد على 4,600,000 طن . وكان المصروف من الفحم في فرنسا في سنة 1780 / 400,000 طن ، وفي سنة 1845 بلغ 6,000,000<sup>(146)</sup> .



### القصدير

أمّا القصدير فوجوده في بلاد الإنكليز من قديم الزمان وأول من أتجر فيه معهم أهل فينيقية لأنهم هم أول من عرف خاصية إبرة المغنطيس ، ومن قبل أن غزا القيصر يوليوس هذه الجزيرة كان الرومانيون واليونانيون يسمعون بوجود جزيرة جهة الشمال توجد فيها معادن هذا الصنف ، وكانوا يسمونها «كستيريدس» أي جزيرة القصدير . وبقيت هذه التجارة مقصورة على الفينيقيين أحقاباً عديدة ، وكان اليونانيون كثيراً ما يبعثون إليهم جواسيس ليتعرفوا أي بر ينزلون ؛ فلم يقدرُوا . والذي يُبعث من هذا الصنف إلى البلاد الخارجية يبلغ في السنة ألفاً وخمسمائة طن غير مصنوع ، وثمان

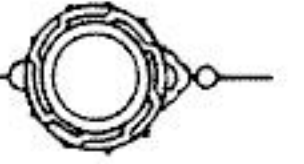
(146) وفي سنة 1878 بلغ مقدار الفحم الحجري الذي استخرج في فرنسا 17,096,520 طناً .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



## سكك الحديد و مصالغ أخرى

أمّا مصلحة سكك الحديد في بلاد الإنكليز فهي أعظم المصالح التي شغلت منهم خواطر الأغنياء والمستربحين والمستنبتين ، فإن مجموع رأس المال الذي وضع فيها يبلغ مائة مليون ليرة ، ومجموع رأس المال الذي وضع في أشغال القطن يبلغ أربعين مليوناً ، والذي في أشغال الصوف ثمانية عشر ، والذي في الحديد أحد وعشرون ، والذي في الحرير ستة عشر ، ومجموع رأس المال الذي وضع في أشغال الحديد في بلاد الدول المتحدة ثلاثون مليوناً .

ويُحكى عن رجل في بلاد الإنكليز أنه كان في الأصل بزّازاً خاملاً فتعاطى أشغال هذه السكك فحصل له توفيق فيها ونجاح وما زال يزيد نجاحاً حتى استغنى غنى لم يُذكر مثله في التواريخ قط ؛ فيقال إنه صار يتولّى أشغال خمسين ألفاً من الصناع يعملون تحت يده ، والذي فاق في شهرة الغنى في التواريخ القديمة رجل من أهل رومية يُقال له : كاسيليوس أزيدوروس . قيل إنّه لما مات ترك 4,116 عبداً و 3,600 ثور 200,000 رأس من البهائم ، وثلاثة ملايين ليرة . وحيث تسمع بأن رجلاً بمفرده غني جداً فاحكم على كثيرين بأنهم فقراء جداً .

ثم إنه لما نشم<sup>(149)</sup> بعض المحترفين من الإنكليز في إنشاء سكك الحديد ، ولهج بها المتكسّبون لم يكن أحد يصدّق أنّها تصل إلى ما وصلت إليه ، بل كان كثير يستخفون بها ويسخرون ممن وجّه همه إليها ، فقد كتب في بعض صحف الأخبار منذ عشرين سنة ما نصّه : أمّا هؤلاء المصطرفون الذين يخيل لهم أن ينشئوا سكك الحديد في جميع جهات المملكة حتى يُستغنى بها عن السفن والعجلات والعوامل والحوامل وغيرها مما يركب الناس فيه برّاً وبحراً ، فإننا ننزلهم وتصوراتهم هذه التي هي أضغاث أحلام ، منزلة من هو غير جدير بأن يُشغل به الخاطر .

وأول سكة وضعت في هذه البلاد كانت في جهة نيوكاستل في أوائل الرن السابع عشر ، ولكن كانت قضبانها من خشب ، وكان المقصود منها نقل الفحم عليها

(149) نشم في الشيء : بدأ به . (م) .

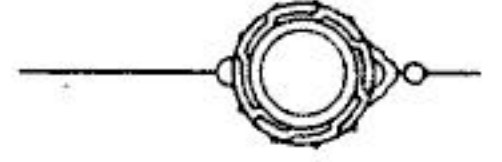


إلى المرفأ ، ثم انشئت سكة أخرى في ويت هافن ، وذلك في سنة 1738 . وأعظم سكة وضعت بعدها كانت في كلبروك دال في سنة 1786 . ثم كان أعظم السكك وأطولها سكة ليفربول ، ومنشستر ، بُدئ بها في سنة 1826 وفتحت في سنة 1830 . ومنذ ذلك الحين شرعت جماعات كثيرة في انشاء سكك شتى في إنكلترا وفرنسا وبلجيكا وغيرها . وفي سنة 1834 كان صنف من الرتل المسمى الناقل يسير في الساعة ستة أميال . وفي سنة 1829 كان صنف آخر يسمى «الشاروخ» يسافر خمسة عشر ميلاً . وفي سنة 1834 سافر صنف يسمى «طيار النار» عشرين ميلاً في الساعة . وفي سنة 1839 سافر صنف آخر يسمى «نجم الشمال» سبعة وثلاثين ميلاً . والآن صار الناقل يسافر سبعين ميلاً في الساعة . وكان في مبدأها ينفق عليها من الفحم أكثر مما ينفق الآن بخمسة أضعاف ، وقس على ذلك سائر المصاريف . وقد علم من خلاصة مجلس الشورى المنوط به إقرار هذه المصلحة أن الحصص الأصلية وما يلحقها من الاستقراض الخاص بجميع جماعات سكك الحديد الكائنة في بريطانيا بلغ ثلاثمائة وستة وثلاثين مليوناً من الليرة . وبلغ عدد المسافرين في افي المملكة المذكورة في بعض السنين 5,367,404 تحصيل منهم ، ومما أخذ أيضاً على البهائم والرسائل 5,424,605 ليرات . وعدد مجموع سكك الحديد فيها بلغ مائتين واثنين وعشرين سكة . تجري أسلاك التلغراف في ثلثيها . وفي سنة 1850 تحصيل من إيراد سكك الحديد في جميع أوربا 23,300,000 ليرة . وكان نصف ذلك من إيراد سكك ابريتانيا . وهذا جدول أطوال السكك المعروفة في الدنيا :

### سكك الحديد في أوربا وأميركا

في بريطانيا 803,7 ميل إلى سنة 54	في بلجيكا 095,1 ميل إلى غاية 48
في أميركا 800,3 إلى غاية 48	في فرنسا 200,2 إلى غاية 48
في إيطاليا 115,0 إلى غاية 48	في كوبا 800 إلى غاية 48
في الدنيمرك 106 إلى غاية 48	في روسيا 52 إلى غاية 48
في جرمانيا 570,1 إلى غاية 48	مستعمرات الإنكليز 1,000 إلى غاية 48

في هولاند 200 إلى غاية 48 في هند الشرق 500 إلى غاية 48  
والميل عبارة عن 1,860 ياردة ، والياردة عبارة عن نحو ذراع ونصف<sup>(150)</sup> .



## عودة إلى سكك الحديد في بريطانيا

وفي سنة 56 امتدت سكك الحديد في بريطانيا إلى 8,054 ميلاً أنفق فيها 286,000,000 ليرة ، ومنها أكثر من خمسين ميلاً في صخور منقورة ، ومساحة تلك الأميال 550 يارداً مكعباً ، ويجد لهذه السكك خمسة آلاف مزجية<sup>(151)</sup> وهي الآلة التي يُقال لها انجن ، وفي كل سنة تسير الأرتال ثمانين مليون ميل ، ومصروف المزجيات من الفحم في كل سنة مليون طن . وفي خدمة الجمعيات القائمة بهذه المصلحة تسعون ألفاً ما بين رئيس ومرؤوس . وفي سنة 54 كان عدد من سافر في هذه السكك أحد عشر مليوناً واستفيد منهم أكثر من عشرين مليون ليرة وهو نحو ثلث إيراد الدولة . والمصروف من الحديد على تبديل القضبان والأدوات في كل سنة عشرون ألف طن ، ويقطع أيضاً للوازمها نحو ثلاثمائة ألف شجرة ، وكل رتل يحمل في مجمل الحساب مائتي شخص ، وبلغ ما أعطي لأصحاب الأرض تعويضاً لهم عما أخذ من أملاكهم نحو سبعين مليون ليرة . وأسلاك التلغراف ممتدة 7,200 ميل ، ويلزم لها من سكك الحديد ما طوله 36,000 ميل . وعدد المستخدمين في التلغراف ثلاثة آلاف ، وكل واحد من خمسين من أهل إنكلترا يتوقف معاشه وقوام أمره على هذه السكك .

(150) منذ تأليف الكتاب ازدادت السكك الحديد في أوروبا ازدياداً عظيماً ففي إنكلترا وحدها بلغ طولها لغاية سنة 1880 مسافة 18,000 ميل كلفت 717,003,469 ليرة وحملت الركاب في ظرف سنة واحدة نحو 600,000,000 نفس . وفي أميركا بلغ طول السكك المذكورة 81,725 ميلاً . وفي إيطاليا 5,098 وفي جرمانيا 19,773 وفي فرنسا 13,871 بلغ إيرادها في السنة المذكورة 36,235,408 ليرات إنكليزية ، وقس على ذلك ازدياد السكك في بقية ممالك أوروبا .

(151) مُزجِية : محرك . (م) .

وقال آخر : بلغ الحاصل من إيراد سكك الحديد في بريطانيا في سنة 57 ثلاثة عشر مليوناً وذلك بحساب فائدة 4 في المائة . وقال آخر كان في أواسط سنة 60 / 127,450 رجلاً مستخدماً في سكك الحديد في جميع المملكة والمشروع فيها الين يستخدم فيه 53,923 فتكون الجملة 181,373 وعدة المواقع 3,601 .

## سكك الحديد في بروسية

ثم رأيت بعد ذلك في بعض صحف الأخبار أن طول سكك الحديد في مملكة بروسية بلغ في سنة 59 / 3,162 ميلاً ، وأن رأس المال الذي عيّن لذلك بلغ 44,080,000 ليرة فيكون 13,940 ليرة على كل ميل ، وبلغ عدد المسافرين في السنة المذكورة ما عدا العسكر 19,279,668 ومقدار البضائع التي نُقلت فيها 11,904,761,012 طنّاً ، ومقدار ما تحصّل منها 5,399,440 ليرة أعني 1,707 ليرات من كل ميل .

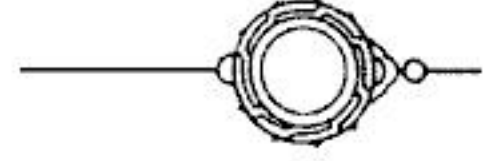
## عودة إلى إنكلترا

هذا ما تيسر لي نقله من الكتب ، ومن صحف الأخبار . وأقول : إنني سمعت من غير واحد أن أعظم سكة في إنكلترا هي التي يُسافر بها من لندرة إلى برستول . فإنه أنفق في إنشائها نحو ستة ملايين ليرة وإيرادها في كلِّ شهر مائة وخمسون ألف ليرة ، ثم إن الرتل الذي يقف في عدّة مواضع يسير في الساعة نحو عشرين ميلاً . فأما الرتل المخصوص فإنه يسير في الغالب أكثر من خمسين ميلاً وهو يمرُّ كالبرق الخاطف فإذا رأته هالك مرّة وربّما وقفت له الأرتال البطيئة خشية المصادمة . والمحسوب أن الجُعل على كل ميل في المحل الأول قرش ونصف ، وفي الثاني قرش ، وفي الثالث نصف قرش . ومما مرّ تعلم أن منشئ هذه السكك هم جماعات يخرجون مالاً من ملكهم ويشترون فيها دخلاً وخرجاً فإذا أراد أحد أن يبيع حصّته فيها اشتراها آخر . ولباس المستخدمين فيها كلباس الشرطة ، بل أحسن .



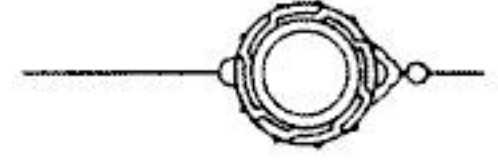
وفي طول السكّة يقيمون رجالاً يتعهدون القضبان ، ويحافظون على تنظيف الطرق  
فقد يتفق أن بعض الأعداء يكسر قضيباً منها فيكون في ذلك هلاك نفوس شتى .

## القطارات في فرنسا وإنكلترا



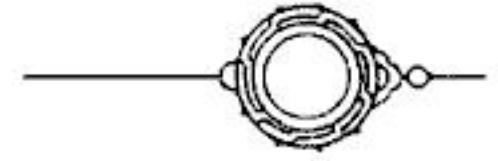
ومما ينبغي أن يلاحظ هنا أن الأرتال الفرنسيين أقل عرضة للمصادمة والخطر من  
الأرتال الإنكليزية ؛ فكل يوم تسمع في بلاد الإنكليز عن عطب عرض لأحد  
الارتال ، ولهذا كانت الشيوخ والعجائز عندهم يأنفون من السفر فيها ، ويوثرون السفر  
في بعض مراكب البرّ على قديم عاداتهم . وسبب كثرة هذه الأخطار عندي هو أن  
مديري المزجيات كغيرهم من أبناء جنسهم في الانهماك في شرب المسكرات ،  
فيشربون وهم مباشرو الآلة حتى يغرب عنهم الرشد والصواب .

## حوادث القطارات والسفن



ففي سنة 56 هلك في بريتانية في هذه السكك 281 نفساً وأصيب نحو 400  
وذلك ما بين مجروح وأرب<sup>(152)</sup> . وقس على ذلك خطر السفن . فقد تلف لهم في  
السنة المذكورة على سواحل المملكة فقط ألف وتسعمائة وتسع وخمسون سفينة .  
والمعلوم في مجمل الحساب أنه يُفقد لهم في كل شهر مائتا سفينة . ومع ذلك فهم  
أغنى الناس جميعاً فتعجب .

## مقارنة بين أرتال الإنكليز والفرنسيين



ألاحظ أيضاً أن الإنكليز إذا عملوا شيئاً فإنما يراعون فيه وجه التكسب والمصلحة  
فقط ، والفرنسيين يضيفون إلى ذلك راحة المسافر ورونق المحل وكسب الثناء . فإن

(152) أرب العضو : قطع ، أو سقط من داء أو غيره . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

على الإسراف . وما عدا هذه الأنواع الثلاثة فقل أن تبصر مليحاً . فأما في باريس فلم ألاحظ ذلك إلا في دكاكين اللّحامين حيث تنتاب الخوادم لشراء اللحم ، والذي يظهر في الجملة أنض رجال الفرنسيين أجمل من نساءهم ، ومن رجال الإنكليز ، وأن نساء هؤلاء أجمل من رجالهم ومن نساء أولئك . ومن العجب أن الإنكليز قد يبلغ أحدهم السبعين ولا يخطه الشيب لا في رأسه ولا في عارضه ، وإنما يغلب عليهم في هذه السن الدّرّم والدّرّد أعني : سقوط الأسنان . وعندني أن أعظم أسباب الشيب في الأصل هو الهمّ والخوف من ظلم الولاة وذي الإمرة ، فإن أحد الإنكليز إذا كان يملك مثلاً مليون ليرة لم يخش أن أميره ، بل ملكه بنفسه عليه بذلك ، لا بل يتباهى به ما شاء لاعتقاده أن غناه وغنى أمثاله موجب لغنى الدولة وشرفها ، ولا يخشى أيضاً أن يتناول عليه في حقوقه أحد ممن هو أعلى منه فإنّ الجميع في الحقوق متساوون ، وإنّ القاضي والجرنال عتيدان<sup>(155)</sup> لكل من الغني والصعلوك ، والنبية والخامل . وحسبك أن بعض باعة الشراب أقام دعوى على دوك كمبريج ابن عم الملكة فما وسعه إلا الحضور بين يدي القاضي . ثمّ الغالب عليهم أيضاً الكلوح والعبوس ، ولا سيّما أهل القرى وإن يكن جوهم أصفى من جو أهل المدن ، وذلك لأنّ في المدن كثيراً من الملاهي والملاعب ، ومن العازفين بألات الطرب . فمتى سمعت الأم الموسيقى أخذت طفلها ورقصته عليها أو غنّت له فيدرب بذلك ؛ فيغرس فيه حب الطرب والخفة والبشاشة . فأما البلاد الخالية من ذلك فلا بدّض وأن ترى وجوه أهلها عابسة باسرة وطباعهم بليدة .

## نساء الإنكليز

أما نساء الإنكليز فلونهن البياض المشرب بحمرة ، وعيونهن شهل أو زرق في الغالب ، وشعرهن أسود غالباً وإن اشتهر خلافه إلا في حواجبهم ، فقل أن تكون حالكة . وأسنانهن أحسن ممّا يظن في أمثالهن ممّن ربّي في البلاد الباردة . وقد زين

(155) يشير إلى دور القضاء والصحافة في الدفاع عن حقوق الناس على اختلاف طبقاتهم . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

أنَّ النساء يضعن أمثاله أحياناً ولا بالهزيمة<sup>(161)</sup> في الخد ، وإنما يستحسنون النونة<sup>(162)</sup> في الذقن ، ولا يشبهون المرأة بالشمس ولا بالقمر ، بل بالنجم . وعندى أن أشوق شيء في الوجه الفم والعينان ؛ لكونهما يتحرَّكان فيحرَّكان الوجد ، ولا أرى الحقَّ مع من قال : «أحب منها الأنف والعينانا» بل الحقُّ ما قاله الآخر : ياليت عيناها لنا وفاها . ولعلَّ الرواة حرَّفوا المصراع الأوَّل أو لعلَّ الرَّاجز حكى واقعة الحال .

ثمَّ إنَّ النساء في بلاد الإنكليز هنَّ اللواتي يباشرن خدمة الديار غالباً ، أمَّا الرجال فلا يكونون في خدمة إلا عند الكبراء ، وكثيراً ما ترى جارية حسناء زاهرة تامَّة الأوصاف تخدم سيِّدة من السَّعالى<sup>(163)</sup> ، وإذا طرقت الباب ، وخرجت الجارية لتفتحه حسبتها هي المخدومة ، وأدهشك جمال وجهها عن وجه سؤالها .

### خصال مكروهة في النساء

ولنساء القرى خصلة ذميمة وهي أنَّهنَّ يشرقن بنخامتهن<sup>(164)</sup> ، وهذه تقابل خصلة نساء فرنسا في لحسهنَّ أصابعهنَّ بعد أكل الحلواء ونحوها ، ويقابلها من خصال أهل المشرق التجشوء وهو حُباق المعدة<sup>(165)</sup> ، غير أنَّ خصلة الفرنسيات أقلُّ أذى لأنَّها لا تكون إلا عقب الأكل ومدَّتْها لا تطول . وجميع النساء اللاتي استخدمناهن كنَّ يلمسن شعورهن ووجوههن وأيديهن وسنخة ويغسلن وجوههن وأعناقهن ، ويمسحنها بالخرق التي يمسحن بها أنية المطبخ . والخصلة الأولى رأيتها في لندرة أيضاً . وقد سمعت أن نساء فرنسا المتظرفات لا يغسلن وجوههن بالصابون

(161) الهزيمة : الغمزة في الخد وغيره . (م) .

(162) النونة : النقرة في الذقن . (م) .

(163) السعالي : جمع سعلاة وهي الغول . (م) .

(164) النخامة : ما يلفظه الإنسان من البلغم . (م) .

(165) حُباق المعدة : الصوت الذي يخرج منها أثناء التجشؤ . (م) .



مخافة أن تمجل<sup>(166)</sup> بشرتهن ، وإنما يغسلن بماء النخالة مع أن صابون فرنسا أحسن من صابون الإنكليز ، ويُقال : إن أهل فرنسا الأقدمين ، وكان يُقال لهم الغال ، هم أول من عملوا الصابون في أوروبا . وكان الناس من قبل ذلك يغسلون ثيابهم بالماء فقط ، إمّا بأن يدعكوها بأيديهم ، أو بأرجلهم . ولم يعمل في لندرة قبل سنة 1524 . والمحسوب أن كل واحد من أهل بريطانيا يلزم له سبعة أرطال من الصابون في كل سنة ، فعلى هذا يكون اللازم منه لأهل لندرة وحدهم تسعمائة طن . وجميع الإفرنج لا يغسلون أيديهم بعد الطعام ، غير أن الكبراء منهم يغمسون أصابعهم في صحاف يؤتى بها أمامهم على المائدة ، ثم ينشّفونها من دون صابون ، وربّما تمضمضوا وألقوا فيها الماء من أفواههم بحضرة الضيوف ، وكذلك تفعل النساء وهو عندي أقبح من عدم الغسل .

ومّا يُكره في نساء الإفرنج تربية أظافرهن حتى تأخذ حدّها في الطول ، وترك شعورهن في القفا منفضة مشعثة ، فمتى نزعت إحداهن غطاء رأسها رأيت شعرها كشعر المقشعر ، وإن إحداهن لتلعب بجرو كلب بحضرة الناس ، وربّما نزا عليها ولحس ترائبها ووجهها . ونساء الأكابر يستصحبن كلابهن في العواجل . وعندهن صنف من الكلاب يقعدنه في أحضانهن ، ويُسمّى كلب الحضن . وإني أحمد من نساء الإفرنج عموماً ، ومن نساء الإنكليز خصوصاً أنّهن لا يستعملن الصبغ ولا التزجيج ، فكما خلقهن الله يبدون ولا يتباهين بكثرة الحلّي والجواهر ، فغاية تصنعنهن إنّما هو في تصفيف شعورهن ، وتغيير ملابسهن بحسب الزيّ المستعمل . فأما نساء الفرنسيين فإنّهن أكثر زهواً وعجباً من جميع نساء الإفرنج ، وقد كانت النساء هنا يرسلن على طلاهن<sup>(167)</sup> سوائف مجعّدة تفعل ذلك منهن الطويلة الشعر عجباً به ، فصرن الآن يسوينه منسرحاً على أفواذهن اقتداء بالملكة إلا ما ندر . ومثل هذه العادة في القلّة عادة المرافد<sup>(168)</sup> ، وللنساء على الرجال مزيتان علوية صيفية وسفلية

(166) مجلت اليد : تقرّحت ، وكذلك الوجه . (م) .

(167) الطلى : جمع طلية وهي العنق . (م) .

(168) المرافد : جمع مرفد ، وهو ماتعظم به المرأة أردافها من الثياب وغيرها . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



من تنصب حُرَّ وجهها لحرّ الشمس في الصيف بأن تعزق الحقول ؛ وتحمل الأحمال الثقيلة ، وتحصد وتبذر وتجمع الحبوب ، وتحتطب ، وما أشبه ذلك . وفي شهر حزيران حين يقطع الحشيش ترى نساء كثيرة يجمعنه ، وحين يحصدن الزرع لا يعملن بنصر التواراة في سفر الأحرار فإنهن يحصدن الأرض من تحته ، ومع هذا الشقاء فلا تزيد أجرة المرأة في اليوم على نصف شلين ، وهو بالنسبة إلى غلاء بلادهن بقيمة قرش عندنا . فكنت أقول في نفسي ما أرخص الجمال في هذه البلاد ، وما أقسى قلوب الرجال الذين يحوجونهن إلى هذا الابتذال ، أو لعلهم يريدون صبغ هذا البياض النقي بورس الشمس أو سحمة الضباب :

فلو برزت سواعدهن يوماً  
لشاعرنا لأنشد من ذهول  
بربات الحقول يحق لي أن  
أشعباً لا بربات الحجول  
ولو برزت ترائبهن ليلاً  
لصدر الدولة القرم الجليل  
لقال خذوا حظايا الكرج عني  
فدى الصلفات عند ذوي الخمول  
وفي الجملة فلا شيء أرخص من الجمال في هذه الديار .

## حبّهم للسمرّة

هذا ولما كان لون البياض عامّاً في الرجال والنساء في هذه البلاد كانت المرأة السمراء محبّبة إلى الرجال جداً ، والرجل الأسمر محبّباً أيضاً إلى النساء جداً . وهذه الطائفة المعروفة عندهم باسم جبسس ، وهم صنف من نور بلادنا وغجر مصر لولا دناءتهم لكانت عليه الإنكليز تصاهرهم وذلك لسمرّة لونهم وكحل عيونهم ، وقد كان الدكتور لي متزوجاً إحدى هؤلاء الجبسيات رأها مرة فأحبّها لسمرتها ، وأحبّته هي لبياضه ، فوعدها بأن يتزوجها بشرط أن تتهدّب في مذهب النصرانية ، فأجابته إلى

ذلك فتأهل بها .

## النور في إنكلترا

ومن الغريب أنّ هذا الجيل يعيش في هذه البلاد عيشة النور في بر الشام سواء إذ ليس لهم مقرّ معلوم للإقامة ، فمرّة يسكنون الغياض ، ومرّة الخصاص ، وبعضهم يأوي إلى نحو هودج يجره حصان فيجعل فيه رحله وأثاثه ، وهكذا يطوف في البلاد ، وإليهم تنسب سرقة الدجاج والخيل ، أو في الأقل أذناها ، والإنباء عن البخت . ولهم لسان خاص بهم ، ويُقال لشيخهم ملك إلا أنّهم يخالفون نورنا بكونهم غير مولعين بالطرب والرّقص ، وما ذلك إلا لكونهم مولودين تحت رقيع<sup>(169)</sup> الإنكليز الكالخ . ولما كان هؤلاء يعنتونهم في السكنى تنصّر منهم كثير ، فإن قلت كيف يبصّرون البخت ، والإنكليز لا يعتقدون بهذه الأمور؟ قلت : إنّ عامّة الإنكليز على غاية من الجهل ، فعندهم من التفاؤل والتشاؤم ما عند عامّة بلادنا كما سنبيّن ذلك بعد .

## شيء من تاريخهم

وعن بعضهم أنّ هؤلاء الجبسس هم إحدى عشائر مصر الذين خلعوا عنهم نير الطاعة للترك حين غزوا بلادهم حتى إذا فشلوا تفرّقوا في الأرض ، فكان أول ما ظهروا في جرمانيا ، وذلك نحو سنة 1517 وحيث كان الناس إذ ذاك على جانب عظيم من الوسائس والأضاليل ، وظنّوا بهم علم بصر البخت رحّبوا بهم في كلّ مكان ، وفي سنة 1560 نفوا من فرنسا ، ومن غيرها أيضاً ، إلا أنّهم لم يزالوا موجودين في كلّ مملكة . وفي أيام شارلس الأول قتل ثلاثة عشر شخصاً من الإنكليز لاختلاطهم بهم ، وأخرب مأواهم في نوروود ، وذلك سنة 1797 وعملوا معاملة البطالين التائمين . وقبل سنة 1800 كان منهم في إسبانيا أكثر من مائة وعشرين

(169) الرقيع : السماء . (م) .

ألفاً ، ولم يزل منهم في هذه البلاد جماعات كثيرة ، ومع اختلاطهم بغيرهم من الأجيال فإنهم لم يحولوا عن عاداتهم وأطوارهم وسحنهم فهم أشبه باليهود . وقال آخر : إن أصلهم من الهند ، وإنهم يتكلمون بلغة من لغاتهم ، وإن حقيقة اسمهم زنكان أو جنكان انتهى .

ثم إن تحقق الحسن في السمر ، أو السود في عين الرائي لا يمكن من قريب ، فأما البيض فإذا رأيت صفاً منهم عن بعد توهمتهم كلهم ملاحاً لأنّ البياض كما قيل شطر الحسن ، ويمكن أن يُقال : إنّ ذلك بالنسبة إلى ألفة النظر . وروى ابن عساكر عن خالد بن سفيان<sup>(170)</sup> أنه قال : عمود الجمال الطول ، وبرنسه سواد الشعر ، ورداؤه البياض . قلت : فعلى هذا فقد اجتمع في مؤنث جيل الإنكليز العمود والبرنس والرداء . وقد تحلّ بعضهم لأن فضل السود بقوله :

ربّ سوداء وهي بيضاء عندي  
فهي مسكٌ إن شئت أو كافور  
مثلُ حبّ العيون يحسبها النا  
س سواداً وإنما هي نورُ

وقال غيره :

يكون الخالُ في وجهٍ قبيح  
فيكسوه المهابة والجمالا  
فكيف يُلام عاشقُها على مَنْ  
يراها كلُّها في العين خالا  
وهذه كلّها من مغالطات الشعراء والحق ما قاله البهاء زهير :  
اسمع مقالة صبّ  
وكن بحرقك عوني  
إن المليح مليح  
يُحِبُّ في كلّ لون

(170) هو خالد بن صفوان ، وليس كما ذكر الشدياق . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

معنى قول الإنكليز إنهم هم خير من غيرهم أزواجاً وغيرهم خير منهم عُشاقاً .

## تفشي الأمية في الريف الإنكليزي



والفرنسيين يصفون نساء الإنكليز بأنهم عُسر أي يعملن باليد اليسرى تعريضاً بكونهن لسن صُنْعاً<sup>(171)</sup> كنسائهم . وهذا القول باعتبار صنعتي اللم والإبرة حق ، فإن عامة النساء هنا لا يحسن الخياطة ولا التطريز ولا الكتابة ، وإذا كتبت إحداهن رسالة تشحنها بالغلط والخطأ مع أن لغة الإنكليز هيئة المأتي بالنسبة إلى غيرها ، ولكن هن معذورات في ذلك إذ ليس يوجد في القرى مدارس جيدة أو معلمون ماهرون . وربما اجتزيء عن المكتب بأن يتعلمن في الكنيسة يوم الأحد شيئاً من أصول الدين وشيئاً من القراءة مما لا يُعبأ به . وفضلاً عن ذلك فإن الولد متى أدرك وهو تحت حجر والديه لم يستغنيا عنه لأنهما إماً أن يستصحباه معهما إلى المزرعة ليعينهما على عملها ، وإماً أن يبقى في البيت ليهيئ لهما طعامهما ، ويحفظ رحلهما ، وغير ذلك . فإن يكن ، والحالة هذه من لوم على النساء ، فإنما هو على قاطنات المدن والقرى الجامعة ، بل الرجال في هذه الأماكن لا يريدون اعتكاف نسائهن على القراءة والكتابة لئلا يشمخن عليهم كدأب نساء الفرنسيين . وما أحسن هنا ما قيل «إن المرأة الفاضلة هي التي إذا قرأت خلقتها لا تحسن العمل ، وإذا عملت خلقتها لا تحسن القراءة .

وعلم من الإحصائيات الرسمية أنه «في سنة 1855 تزوج 3,150,470 فوجد من كل مائة امرأة أربعون قد وضعن على الطروس علامة الصليب بدل أسمائهن ، ومن كل مائة رجل تسعة وعشرون رجلاً على تلك الصفة» . قلت : والذين يعرفون أن يكتبوا أسماءهم ينبغي إسقاط ثلثيهم من عداد ذوي الدراية ، فإن أكثرهم لا يحسنون كتب رسالة .

(171) صُنْع : جمع صناع وهي المرأة الحاذقة الماهرة في عمل اليدين . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

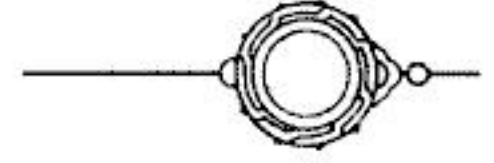


You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



أيضاً إنَّهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون أنفسهم ، وهم في هذه الحالة ، أسعد خلق الله ، وإن جميع رسومهم وأحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير .

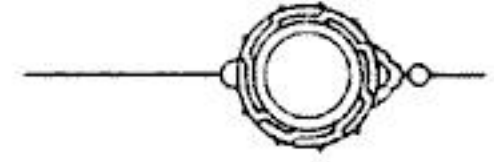
## مصارييف العسكري في أوربا



وكيف كان فإن شقاءهم موجب لسعادة الدولة وفقدهم زائد في غناها ، فإن مصارييف العسكري الواحد هنا تبلغ في السنة مائة وسبعين ريالاً ، وفي بروسية اثنين وستين ، وفي الروسية ثمانية وستين ، وفي أوستريا تسعة وسبعين ، وفي فرنسا مائة وثلاثة عشر ، أمّا في أميركا فمائة وأربعة وثمانون ريالاً .

ويقال إنه يلزم لكلّ نفر من عساكر فرانس وإنكلترا رطلان وربع من الطعام في كل يوم ؛ منها نحو ثلاثة أرباع خضرة ، والباقي لحم وخبز ، فيبلغ ذلك في السنة ثمانمائة رطل ، فإذا أضفت إلى ذلك مشروبه من الماء والقهوة والشاي والمسكرات بلغ ألفاً وخمسمائة رطل .

## لمحة عن جيوش أوربا



ويقال أيضاً : إن أكثر ما تجهّز عند الدول من الجيوش في العُصر الخالية ما كان فيه . لدولة إسبانيا مائة وخمسون ألفاً ، ولبريتانية ثلاثمائة ألف وعشرة آلاف ولبروسية ، ثلاثمائة وخمسون ألفاً وللدولة العثمانية أربعمائة وخمسون ألفاً ، ولأوستريا خمسمائة ألف ، وللروسية خمسمائة وستون ألفاً ، ولفرنسا ستمائة وثمانون ألفاً ، وهم في هذا العصر أكثر . وأوّل من كان عنده جنود قائمة كما يرى الآن شارلس الثامن ملك فرنسا وذلك في سنة 1445م . وبه اقتدى شارلس الأول ملك الإنكليز سنة 1638 . وحسب ذلك أولاً عند الإنكليز غير شرعي .

وبلغ مجموع العساكر الإنكليزية في سنة 1851 / 178,645 نفرًا وبلغت مصاريفهم 13,721,158 ليرة<sup>(173)</sup>. وكانت العادة قبل حرب القريم أعني الحرب التي وقعت بين الدولة العثمانية ودولة الروسية في سنة 1851 أن يستخدم العسكري الإنكليزي طول عمره؛ فكان كثير منهم يفتدون أنفسهم، وبعد خمس عشرة سنة يدعون بأن لهم حقًا في أن يُسرحوا. والآن فرض على المشاة اثنتا عشرة سنة وعلى الفرسان عشرون. وفي عساكر الإنكليز سبعة آلاف ومئة ضابط بشهرية وافرة، وللنفر من حرس الملكة نحو شلنين في كل يوم، ولكل من الفرسان شلين وثمان، وللمشاة شلين، وثمان رتبة أمير الالاي في الحرس تسعة آلاف ليرة. وذلك أن هذه المراتب في العساكر البرية معرضة للبيع عندهم وهو من جملة الأحوال المختلفة التي يجب إصلاحها ومصاريف العساكر البرية تبلغ في السنة سبعة ملايين ليرة ونحوها مصاريف البحرية، ومصاريف ديوان المهمات الحربية ثلاثة ملايين<sup>(174)</sup>.

## من طبع الإنكليز

ومن طبعهم الرث، وهو البلادة، وقلة الفطنة، فلا تكاد أحداثهم تفهم شيئاً من كلام الغريب بينهم، بل الكهول أيضاً لا يعون ما يُلقى عليهم إلا بعد الروية والتأمل، وشتان ما بينهم وبين الفرنسيين، فإن الحدث من هؤلاء يبتدر إلى الجواب كأنما قد درسه ودراه من قبل سؤالك أياه. ولو قلت: إن البريتاني القح ليس له من نوعي

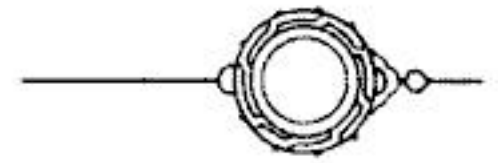
(173) وفي سنة 1881 بلغ عدد عساكر إنكلترا المستوطنين فيها 60,000 نفر وجملة عساكرها النظامية الذين فيها وفي الخارج أيضاً ما عدا عساكرها بالأقطار الهندية 307,000 نفر وهذا العدد قليل بالنسبة إلى قوة عساكر بقية الدول.

(174) وفي سنة 1880 بلغت مصاريف العساكر البرية 15,541,300 ليرة إنكليزية ومصاريف العساكر البحرية 10,492,935 ليرة.

العقل سوى نصف المكتسب ، ونصف الغريزي لما أخطات ، تلك صفته من القديم .  
 فقد رُوي عن شيشرون أنه قال : إنَّ أبله الأسرى الذين جيء بهم إلى رومية هم  
 الذين أخذوا من بريتانية والتمس من صديقه أطيقيوس ألا يشتري فيما بعد منهم  
 أحداً ، وذلك لبلاذتهم ، وعدم أهليتهم لتعلم الموسيقى ، وغيرها من الفنون . ورُوي  
 أيضاً عن قيصر أنه قال : إنَّ أهل بريتانيا جاف متوحش أكثر ما يكون ، وإنَّ  
 معظمهم لم يرَ الخنطة في عمره قط ، وإن قوتهم إنما هو اللحم واللبن لا غير ، ولباسهم  
 جلود الحيوانات . قلت : ليس معنى قوله قوتهم اللحم أنهم كانوا يطبخونه بل إنَّما  
 يأكلونه نيئاً مملوحاً كما يظهر من رواية أهل التاريخ ، فإنَّهم قالوا إنه عُلِم من دفتر  
 حاكم نرثمبر سنة 1512 أن أهل البارون كانوا يقتاتون باللحم المملوح ، فكان جلَّ  
 طعامهم . وكذلك حشمه لم يكونوا يأكلون طول السنة سوى اللحم المملوح وندر معه  
 البقول أو الحبوب . فمن ثم غلط من زعم أن البيف ستك أعني شواء البقر المشرح كان  
 مستعملاً في إنكلترة من القديم فإنَّ هذا الغذاء المريء لم يُعهد قبل شارلس الثاني  
 لأنَّه كان يحبَّ الشواء من ظهر البقر .

قلت وإلى الآن هم يحبُّون هذا الشواء غير ناضج وربَّما قطر دمه في الصحفة ،  
 ويستطيبونه على سائر ألوان الطعام ، ولكن من رأى أهل جبل لبنان يقطعون الهبر من  
 الضأن ويأكلونه نيئاً فلا يلوم الإنكليز .

## جهلهم المدن والبلاد



هذا ومع تكرّر ذكر مدن برّ الشام على مسامعهم من المنابر في كل يوم أحد ، ومع  
 كثرة قراءتهم للتوراة والإنجيل ، فلا يكادون يعرفون أين موقع دمشق مثلاً من  
 الإسكندرية ، ولا يتذكرون شيئاً عن صور وصيدا وبيروت وجبل لبنان مع أنها مكرّرة  
 في الكتابين المذكورين بما لا مزيد عليه .  
 والظاهر أن مصر أشهر عندهم وعند الفرنسيين أيضاً من الشام . وقد سألني مرّة  
 في أكسفورد رجل له سمّت وروء<sup>(175)</sup>

(175) السمّت : السكينة والوقار ، والروء : المنظر الحسن . (م) .

فقال : «من أي البلاد»

فقلت : «هو» ؟ أي من ؟ أريد من تعنى ؟

فقال : «أه من هوه! معتقداً أن هو اسم علم على مدينة

ثم قال : أتعرف في هو فلاناً؟ وسمى رجلاً!

قلت : أنا لست من مدينة هو ، وإنما أنت سألت سؤالاً مبهماً يصلح لأن يخاطب

به أي إنسان كان ، فإذا أردت الآن أن تعرف اسم بلادي فهي سورية .

فقال أحد الجلوس بعد طول تأمل : «هل سورية مدينة كبيرة» ؟ .

إلا أن بلادتهم هذه مقرونة بشيء من سلامة الصدر وخلوص النية كما أن فطنة

الفرنسيس مقرونة بالمكر والمحال ، وكما أن عامة الفرنسيس يحسبون كل غريب فيهم

من إسبانيا ولا سيما إذا كان أسمر اللون . كذلك عامة الإنكليز يحسبون كل غريب

بينهم فرنساوياً سواء كان أسمراً أو أسوداً وسواء كان على رأسه طربوش ، أو طرطور .

هذا ولما كانت خلة الجهل أبداً ملازمة للفظاظة والخشونة كان لهؤلاء القوم الحظ

الأوفر ؛ فإنهم قد حدقون في وجه الغريب ، ثم يتبعونه بقهقهة ويسخرون منه ، ولا

سيماً إذا لم يكن يُحسن النطق بلغتهم على أنهم هم أنفسهم لا يحسنون النطق بها ،

فكلامهم كله لحن وخطأ .

## غناؤهم

أمّا غناؤهم فلا يمكن لذي ذوق أن يطرب به ، وقد سمعت أغاني الفرنسيس

وسائر الإفرنج فوجدت بعضها يطرب ويشجي لأن فيها مدأ وترجيعاً . فأما أغاني

الإنكليز غير التي يتلقونها من الطليانيين والفرنساويين في الملاهي فكلها نبرٌ

ودرج<sup>(176)</sup> .

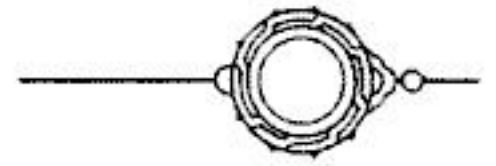
(176) الدرج : الرجوع في الأمر المتروك . (م) .





## عودة إلى طبعهم

ومن طبعهم أنهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض . وكيف يسهرون وهم إنما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحاً في الرابعة كل ذلك حتى يأكلوا الفقع أعني البطاطس ويشربوا الفُقَّاع<sup>(177)</sup> أو ربّما أقام الرجل سنين ولا يعرف جاره . وكذا أهل المدن .



## ملاقاتهم واجتماعهم

وغاية محاورتهم إذا تلاقوا في الطريق أن يقول أحدهم «طيب بطرس» فيقول الآخر «طيب يوحنا» . وكنت إذا مررت بأحد منهم يقول لي «صباح حسن» فأقول له كالصدي «صباح حسن» ، وكنت أحسب ذلك تحية لأن تحية الصباح عندهم «صباح طيب» ، فظننت أنهم يقيمون لفظة مقام لفظة حتى سألت الدكتور لي فقال لي : «ليس ذلك من التحية في شيء وإنما هو مجرد إخبار عن حُسن الصباح» . وإذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بدّ وأن يبتدئ أحدهما أولاً بوصف الهواء وصحوه أو برده ، ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتفه ، أو ثلول في رجله ، أو اختلاج في عينه ، فيقول السامع «يحزني ذلك» ومتى اجتمعوا للمنادمة - وذلك لا يكون إلا في القرى الجامعة - ملأوا كوباً كبيراً من الجعة ، وجعل كل منهم يكرع منه كرة ويدخن في قسبة من الطين ، ثم يبصق فيملؤون المكان بصاقاً وقذراً . وفي خلال كلِّ محاورة يجددون وصف الهواء ، ولا يكاد أحدهم يضحك ضحكاً طبيعياً وإنما هو عبارة عن قهقهة بلا أدب ، ثم يعقبها العبوس ، وما كان الضحك منهم إلا قوة من القوى فهم بلا أدب ثم يعقبها العبوس وما كان الضحك منهم إلا قوة من القوى فهم يكتمون ما أمكن مخافة أن تخرج معه تلك القوة .

(177) الفُقَّاع : شراب يُتخذ من ماء الشعير . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

ثم لما أخذت هذه العادة في العقم نتج عنها ذرور الرماد الأبيض على رؤوس خدّمة الأشراف والعظماء ، وأصل هذه أيضاً ، فيما قيل ، أن بعض المغنين كانوا يغنون في موسم صان جرمان بخارج باريس ، وبهم قرع ، فكانوا يبيّضون رؤوسهم ليضحكوا الناس ، ثم انتقلت هذه العادة كغيرها من العادات من العامّة إلى الخاصّة وذاع استعمالها في سنة 1614 . وفي سنة 1795 جعل عليها ضريبة ، وكانت حينئذ قد بلغت النهاية فجعل على كل رأس جيني ، ولم تزل إلى الآن . والحاصل أن أعظم الأسباب التي تُبقي استعمال هذه العادات السخيفة إنما هو حصول النفع منها لخزنة الدولة ؛ فإنه حيثما وُجدَ الربح وُجدَ السداد والرشاد ، ولو أن الديوان ضُربَ طسقا على اللحي والشوارب لما وسع الناس إلا أن يقولوا إن يدَ الرب على قلب الملك .

ومن عادة العامّة الملاكمة ويُقال لها : «البوكس» . وفي محفوظي أن رفاة بك رحمه الله ذكرها في قلائد المفاخر بلفظة «البوكسة» وذلك إذا تخاصم اثنان أو تكاذبا فينزع كلُّ منهما رداءه ، ويشمّر عن ذراعه ويصوّب إلى وجه قرنه جمع كفه ، ثم يأخذان في اللكام حتى يغلب أحدهما ، وحينئذ يُنهض الغالب المغلوب ، ويأخذ بيده ويشربان الشراب كالمتوادين .

والملاكمة للعامّة بمنزلة المسايقة<sup>(181)</sup> للعلية غير أن هذه محظورة يجب فيها الحدّ ، وتلك مسكوت عنها . وقد كانت سابقاً بمنزلة الملهي في اجتماع الناس للتفرّج عليها . وفي أواخر القرن الماضي كانوا يتعلّمونها في المكاتب .

## تهافتهم على الشهرة

ومن طبع الإنكليز عموماً التهافت على الشهرة ، والنباهة بين أقرانهم بأي سبب كان ، ولا سيّما في أسباب المعارف والعلوم ، فإن من يعرف منهم مثلاً بعض كلمات من اللغة العربية ، ومثلها من الفارسية أو التركية ، فإذا ألّف كتاباً بلغته أدرج فيه كل شيء يعرفه من غيرها ليوهم الناس أنه لغوي ، وما عليه أن يكتب تلك الألفاظ على

(181) المسايقة : المبارزة بالسيف . (م) .

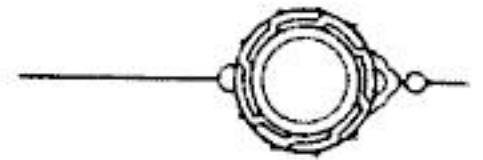
حقها أو يخطئ فيها ، وفي عنوان كتابه تعلق عليه جلاجل من الألقاب الطنّانة ، فيكتب له أنه من أعضاء جمعية كذا ، وملخص كتاب كذا ، ومحرر نبذة كذا ، وخطيب مثابة كذا ، وهلم جرا .

ولو عصرت كتابه كله لما بللت منه صدى مسألة . وأقبح من ذلك أنهم لا يأخذون اللغات عن أهلها ، فمهما يخطر ببالهم في تأويلها يقذفوا به جزافاً من دون تحرج أن ينسبوا إليها ما ليس منها .

انظر إلى ريشردصون الذي ألف كتاب لغة يشتمل على لغته وعلى لغتي العرب والفرس ، فأقسم بالله إنه لم يكن يدري من لغتنا نصف ما أدريه أنا من لغته . لا بل سؤلت له نفسه أيضاً أن ترجم العربي فخلط فيه ولفق ما شاء ، فمثل للإضافة بقوله : قدح فضة ، ملك كسرى ، رأس أمان ، الغالب عجم ، غالب عجم ، كتاب سليمان ، نصر عقبه ، وفسرها بأنها مثنى مضاف إلى العقبة ، و نصروا عقبه ، النصر عقبه ، النصر عقبه .

وأورد حكاية من كتاب ألف ليلة وليلة عن ذلك الأحمق الذي قدر في باله أن يتزوج بنت الوزير ، فلما وصل إلى قوله «ولا أخلي روعي إلا في موضعها» ترجمها بقوله : «لا أعطي الحرية لنفسي أي لزوجتي إلا في حجرتها» ، وقوله أيضاً «ولا أزال كذلك حتى تتم جلوتها» صحّف «جلوتها» بجلدتها ؛ فقال : «ولا أكفّ حتى يتم ذلها» ، وعند قوله «حتى يقول جميع من حضر» كتب في الحاشية «حظر» ، وحضرة بمنزلة السموّ في الإنكليزية ، وقس على ذلك .

## رأي فيما ترجموه إلى لغتهم من العربية



وإذا ترجم أحدهم كتاباً رقعته بما عن له ، وسبكه في قالب لغته . فقد قرأت كثيراً مما تُرجم من كلامنا إلى كلامهم فإذا هو مسبوك في قوالب أفكارهم بما لم يخطر ببال المؤلف قط . وقرأت ترجمة منشور صدر من السلطان في الحضر على الجهاد من جملته : «ليس لعباد النبي من خلاص في هذه الدنيا ، ولا في الآخرة إلا بجهاد الكفار» فانظر إن كان المسلمون يقولون : إن النبي معبود . وما رأيت أحداً تحرج من هذا

التلفيق والافتراء والترقيع غير مستر صال الذي ترجم القرآن ، ومستر لان الذي ترجم  
 حكايات ألف ليلة وليلة ، ومستر بوسطون الذي ترجم خمساً وعشرين مقامة من  
 مقامات الحريري . أمّا الأول فقد ذكر فُلتير أنّه مكث بين العرب سنين مديدة ، وأخذ  
 عنهم علم العربية حتى تهيأ له ترجمة القرآن ، ولست من ذلك على ثقة إذ الظاهر  
 من مقدمته للترجمة أنه لم يخالط العرب ، وكيفما كان فهو من المحققين . وأمّا الثاني  
 فإنّه لبث في مصر وعاشر علماءها وأدباءها . وأمّا الثالث ، فإنّه كان قد سار إلى الديار  
 الشامية واستصحب بعض أهاليها ، وما عدا هؤلاء الثلاثة فكما قال عقيل بن  
 علقمة<sup>(182)</sup> لعمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه :

خذا بطنَ هرشي أو قفاها فإنه

كـلا جـانـبي هرش لهـن طـريقُ

فإن أحدهم لا يبالي بأن يؤدي معنى الترجمة بأي أسلوب خطر له ، فلو قرأ سبباً  
 في كلامنا مثلاً بأن قال بعض السبّابين لآخر : «يحرق دينه» ترجمه بأن دينه ساطع  
 متلهب من حرارة العبادة والغيرة بحيث أنه يحرق جميع ما عداه من الأديان أي  
 يغلب عليها فهو الدين الحقيقي القاهر ، كما ورد إنَّ الله نار آكلة ، وهكذا فليس  
 لعمرى علم لغتنا عندهم سوى سبب يُتوصل به إلى التنف من غيرها كالعبرانية  
 والسريانية ، فإن هاتين عندهم أهم وأنفع ، وناهيك أن دخل مدرس العبرانية في  
 كمبريج ألف ليرة في السنة ، ودخل مدرس العربية سبعون ليرة فقط . ومتى عرف  
 أحدهم شيئاً من لغتنا طابقة على غيره من تلك اللغة ، واستخرج منه فائدة تختصُّ  
 بالمطابق عليه .

## حوار مع دكتور لي

وقد جرى مرّة بحضرة الدكتور لي ذكراً أحد النمساويين فقلت : إنه ذو دعوى

(182) هو عقيل بن علقمة ، وليس كما ذكر الشدياق . انظر ترجمته في كتاب الأغاني ج 12 ص 254 وما

بعدها . وهرشي : ثنية في طريق مكة قبية من الجحفة . (م) .

لكونه نظم أبياتاً في لغتنا ، وشهرها في كتاب مطبوع مع أنها كلها لحن وزحاف ، فلو كان ذا أدب لما تكلف النظم من دون معرفة قواعده ، وهو بعيد عليه بل على جميع الإفرنج الذين لم يأخذوا عن العرب .

قال : « كيف ونحن ننظم الشعر في اليونانية واللاتينية ولم نحالط أهلها ؟ » .  
قلت : ههنا فرق ، وهو أن هاتين اللغتين كالأصل للغتكم ، فتتعلمونهما على صغر أمماً العربية فهي أجنبية عنكم .

قال : إن الرجل ليتمكن أن يتعلم أي لغة شاء كما يتعلمها الطفل .  
قلت : أمماً أنا فما هذا مذهبي ، وإني أعطي كتبي كلها لأي إفرنجي كان ، إذا نظم بالعربية بيتين صحيحين بليغين .

قال : أنا أنظم لك الليلة ثلاثة أبيات .

فلما قابلته في الغد إذا به قد ناولني رقعة كتب فيها :

ألم تر يا صاح بهذا علامة

بأن صار الأجنبي يجري كرامة

وإن لم يكن هذا عروضاً مصححاً

فلا تعطه أسفارك عامّة

فإن كان ذا إذاً صحيحاً وسالماً

ستسلمه أجراً أسفارك رامة

فلما قرأتها قلت له : فيها زحاف وخطأ .

فسكت ساعة ، ثم قال : أتدري ما الألف التي في قول أمرء القيس « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » ؟

قلت : هي ألف التثنية عند بعض ، فإن الشاعر خاطب صاحبين له ، وذلك مستفيض في كلامهم ، وعند بعض أنها مقلوبة عن نون التوكيد . قال : « هذا كله تمحل وتعسف ، وإنما هي مقلوبة من الهاء من العبرانية ؛ فإن اليهود يلحقون الهاء بفعلي الأمر والنهي دلالة على الطلب والتوسل » . ثم بينت له بعد ذلك خطأ أبياته .

فما كان منه إلا أن قال : إن لغة العرب ليست مطبوعة كسائر اللغات بل هي لغة مصنعة متكلف فيها كثرة القواعد والضوابط بخلاف لغات أوربا ، وطفق يبين أنه



يجوز في اللغة اللاتينية أن تقام حركة طويلة مقام حركة قصيرة نحو أن تجري لفظة «ماد» مجرى «مد» ونحو ذلك ، ثم سألني : كيف تفعلون بأل في قولك «الذين» فإنه اجتمع فيها ثلاثة سواكن ، وأنتم تقولون : إنه لا يصح اجتماع ساكنين؟ .  
فقلت : أين السواكن الثلاثة هنا؟ .

قال : الألف واللام والذال .

وقال لي يوماً : أتدري من أين اشتقاق الزناء؟

فقلت : لا أدري .

قال : من العبراني فإن زنى فيها بمعنى باع ، فكأن الزانية تباع نفسها للرجل .  
وسألني مرة أخرى : أتدري ما أصل المدّة في نحو آمن؟ .  
فقلت : لا .

فقال : هي الالف في السرياني . وقرأ يوماً «قوما بطّالين»

فقال : البطل عند الصوفية في ثاني مرتبة العابد .

فقلت : الأولى البطل .

وقال أيضاً : إن «يومنا» في قول العرب : إلى «يومنا هذا» من السرياني وهو «يومنان» وقد جرى لي معه وقت الترجمة عدة مناقشات ، ومجادلات لا بأس بإيرادها هنا ، وإن طال بها الكلام فإنها عنوان على معرفة القوم لغة الشرقيين وخصوصاً العربية .

منها أنه كان يحاول استعمال كلمة هوذا في كل موضع يجدها في الأصل أعني العبراني ، فإنه لا يمتنع فيها أن يقال مثلاً لأن هوذا أو وهو هوذا .  
وكان هوذا رجل ، وكان يظن أن إذا في قولنا خرجت وإذا زيدٌ بالباب لا تغني مغناة هوذا .

ومن ذلك أنه كان ينكر قولنا مثلاً أحد الرؤساء بدل رئيس ، ومن ذلك أنه كان يريد المحافظة على الأصل بالإتيان بـ(قائلاً) بعد قال ، فإنه يقال فيه : قال قائلاً مع أن هذا التركيب في لغة الإنكليز منكر ، ولذلك كنا نجد في توراتهم : وتكلّم قائلاً لا قال قائلاً ، وفي مثل قولنا : ضرب لهم مثلاً كان يبذل ضرب بدل قال لأنه كان يترجم في عقله لفظ ضرب إلى لغته فلا يجد معنى سوى إيصال الألم ، وكان يبذل علم



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



فلم يهتدِ إلى اسمه ، فقلت له : كيف وأنت ملازم لهم لا تعرفهم؟ .  
 فقال : إنَّ شيخَ العربية لا يدرّس بنفسه ، ولا يقرأ ولكن له قارئ ، فإذا قرأ القارئ شيئاً يأخذ الشيخ في شرحه أي في توجيهه إلى وقائع تاريخية تتعلّق بذلك الموضوع ، وفي تطبيقه على بعض اللغات كما سأبيّن لك عن قريب . ثم بعد طول معالجة وبحث اهتديت إلى دار الشيخ ؛ فقابلته وسألته أن يريني المكتبة تفضلاً وتكرماً ، فأجاب إلى ذلك وسرنا معاً . وأول كتاب فتحه كان بالخط الكوفي ، وإذا في أول الصفحة لفظة «ألا» فقرأها «الا» وفسرها أنها الله ، فتعجّبت كيف أنّه انخدع فهمه لسمعه لأنهم جميعاً يلفظون اسم الجلالة هكذا .

### مع أستاذ آخر

وسألني مرّة أستاذ آخر : أتعرف لِمَ دلّت في على الظرفية ؟  
 فقلت : لا أدري .

قال : بل أنا أدري ، وذلك لاشتقاقها من الفم الذي أصله فوه . وهكذا يخمّنون ويخرصون على معاني المفردات والمركبات في لغتنا .

### مثال على علمهم بالعربية

وهاك مثلاً على علم هؤلاء الأساتيد وعلى شرحهم لكتبتنا تطفلاً فتصوّر فتصوّر  
 مثلاً أن قارئاً يقرأ على الشيخ قول أبي تمام :  
 هُمَّةٌ تَنْطَحُ النُّجُومَ وَجَدُّ  
 أَلْفٌ لِلْحَضِيضِ فَهُوَ حَضِيضٌ

فيقول الشيخ بلغته : النطاح مختص بالحيوانات التي لها قرون كالثور والتميس والوعل ونحوها ، وقد ذكر في التوراة مرّات كثيرة ، ويمكن أن ينسب أيضاً إلى ما ليس له قرن منها ، فقد روى ليناوس الذي قسم جنس الحيوان إلى سبعة أقسام أن

الحيوانات الجماء<sup>(183)</sup> تتناطح بجباهها . وقد أطلقت العرب اسم الكبش على آلة من آلات الحرب لما أنها تنطح الجدار . و «النجوم» معروفة وقد كانت العرب تهتدي بها في أسفارهم قبل أن عرفت خاصية إبرة المغنطيس . ولما كانوا مشتغلين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن في أوروبا من يشم لها رائحة . ولما فتحوا إسبانيا أو جزيرة الاندلس وذلك في نحو سنة . . . أخذ عنهم العلم بعض من الإفرنج ومنهم سرى في سائر بلدان أوروبا ، وكان انقراض الخلافة من قرطبة سنة 1031 بعد أن دامت العرب أصحاب أمر ونهي وسيادة فيها نحو مائتين وخمس وسبعين سنة . أمّا الألف واللام التي في النجوم فهي أداة التعريف ، وهي في الطليانية والإسبانيولية «ال» للمذكر و «لا» للمؤنث . واللغة اللاتينية ليس لها أداة تعريف ، فأمّا اليونانية ففيها عدة أدوات . ويوجد في لغتنا ألفاظ كثيرة مبدوءة بهذا الحرف منها ما هو عربي وذلك نحو «الكناء» (أي الحناء) و الكحل و القائد والجبره (الجبر) والقرآن و القلي والقرثيم أو الكرزيم ، ومنها ما هو من لغة أخرى . فأمّا اللغة الإسبانيولية ففيها من هذا النوع ألفاظ لا تعدّ . فأمّا عدم لفظ اللام في النجوم فهو لكون النون من الحروف الشمسية .

ثم إن أول من قرّر طريقة سير النجوم حول الشمس ، وسير القمر حول الأرض ، ونسبة بعضها إلى بعض ، وعلّة المدّ والجزر ، والنور ، والجاذبية ، والاعتمادية ، الفيلسوف اسحاق نيوتون ولد في سنة 1642 ومات سنة 1727 ، وكان ذا جدّ ومثابرة على العلم لا تنظر . أمّا قوله : جدّ ألف للحضيض ، فالحضيض هنا معناه الأرض ، فهو من تسمية الكل بالجزء ، ووروده في التوراة كثير ، وفحوى البيت أنه أي الممدوح ذو عناية بالأرض أي بحرثها وإحيائها ، وإنشاء المدن فيها ، وتسوية الأحكام بين أهلها ، حتى إنه أي الممدوح صار أرضاً وخصباً لقاصده .

فأمّا إن كان هذا الشيخ قد تلمذ لشيخنا الأكسفوردي المشار إليه فإنه يقرأ الحديد بدل الحضيض ، وحينئذ يكون تأويله عنده وجدّ أي حظ ، أو أب فإنّ الجد يذكر ويراد به الأب وبالعكس كما ورد في التوراة ألف لاستعمال السلاح وقهر العدو . وهكذا

(183) الجماء : التي ليس لها قرون . (م) .

يمشي على انعكاس البيت بهذا العَصْد<sup>(184)</sup> هو وتلامذته وبعد انقضاء نحو ساعة ونصف على تأويل هذا البيت يقومون وهم سامدو<sup>(185)</sup> الرؤوس عجباً وفخراً ، ويظنون أنّ شيوخ الجامع الأزهر والأموي والزيتونة هم دون هذا التحرير الذي عرف مولد نيوطون ووفاته واستيلاء المسلمين على الأندلس . وقد استبدّ هؤلاء الأساتيد بهذه الدعوى بحيث أنّهم لا يوظفون الغريب ف هذه المدارس ، وإنّما يسمحون له بأن يعلم أشخاصاً على حدّتهم ، فلاهم يتعلّمون حقّ التعلم ، ولا يأذنون لغيرهم في أن يعلموا حقّ التعليم . وهذا الداء فاش أيضاً في مدارس فرنسا مع استتباب المصالح فيها . ولا بدّ لشيخ العربية من أن يكون عالماً باللاتينية حتى إذا جهل شيئاً من تلك عمداً إلى هذه فقور<sup>(186)</sup> منها رقعة .

## كمبريج وأكسفورد

واعلم أن كمبريج وأكسفورد هما مدينتان في بلاد الإنكليز كلّ منهما تحتوي نحو عشرين مدرسة ، وألفي طالب . ففي الأولى تُعلّم الهندسة والرياضيات والإلهيات . وفي الثانية علوم الأدب والفقه والمنطق والفلسفة . ولا يمكن التعلّم فيهما إلا بنفقة زائدة ، وما أحد يقصدهما إلا أولاد الكبراء والأغنياء ، ولا سيّما أكسفورد ، فهناك ترى طالب العلم شامخاً بأنفه مُصعراً خدّه كأنّما هو طالب مُلك الصين والهند . وأكثرهم يصرف همّه في ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم ظهرياً . فمتى حان يوم الامتحان عرف ما يريد الشيخ أن يمتحنه به من المسائل إذ هي محصورة معدودة ، فيجتهد في حفظها وترسّمها ، فإذا سردها عليه وأحسن سردها أجازة بصكّ يذكر فيه أنه نال مرتبة المعلمين ، وهي عندهم متنوعة . ولكلّ من هذه المدارس أوقاف يعيش منها القسيسون الملازمون لها ، ويُقال لكلّ

(184) عصد الشيء : لواه وعقده . وعصده على الآخر : أكرهه عليه . (م) .

(185) سامدو الرؤوس : يرفعونها تكبراً وعجباً . (م) .

(186) قور الشيء : جعل في وسطه خرقاً مستديراً . (م) .



منهم «فلو» ، وربما كان أيضاً من غير القسيسين . فإنَّ كلَّ من نبغ في علم من العلوم أجرى عليه الرزق من الوقف ، فمنهم من له مائتا ليرة في السنة ، ومنهم من له أكثر ، ولكن بشرط أن لا يتزوَّج . فمتى تزوَّج انقطع عنه رزقه إلا أنهم لا يتزوَّجون غالباً إلا بعد أن يحصلوا على معيشة من خدمة إحدى الكنائس . وفي كلِّ سنة من يوم معلوم منها يحصل نزاع ولكام بين طلبة العلم وبين الأهلين ، وربما غلبت فيه الطلبة على قلتهم . ويسمونه يوم الكون والتون ؛ وذلك لأن الطلبة يلبسون ثوباً أسود كالقفطان ، ويُقال له : كون ، والبلد عندهم يُقال له : تون . وفي كل من المدينتين مكتبة عربية غير أن كتب أكسفورد أكثر ، وفيها في سائر اللغات نحو ثلاثمائة ألف كتاب . وأعظم ما سرَّني فيها هو نزولي في محل كان يسكن فيه شكسبير ، كذا قيل لي والله أعلم . وفي مدة إقامتي كلَّها في كمبريج ، وهي أكثر من سنة لم أر من اللهو إلا قرداً وقراداً يلاعبه ، وكان القرد يضرب بالدف والنساء والأولاد والرجال يجرون وراءه ، ولم أر أحداً منهم أعطاه شيئاً . ورأيت مرّة أخرى امرأتين تعزفان بألة الطرب فرميت لهما من الشبَّاك بنصف شيلين فاستكثرتاه .

ثم إن القائم بخدمة أصحاب هذه المدارس نساء وأغلبهن حسان ، فتأتي المرأة في الصباح إلى محل أحدهم ، وهو في فراشه ، لتوقد له النار ، وفي الليل تحضر له الشاي .

وكنت مرّة عند أحدهم فأقبلت امرأة كأنها البدر الطالع ، وقالت له : هل دعوتني يا سيدي؟ قال : لا . ثم دعاها لتحضر الشاي . فتأملتها على النور ، وإذا هي نور آخر . وقد ذكرت ذلك لبعض المتورِّعين من أهل المدارس فأقرُّ بأنه غير لائق ، وإنما جرت به العادة ولا سيَّما أنَّ هؤلاء النساء متزوجات ولا يذهبن إلى أزواجهن إلا عند نصف الليل .

وفي هاتين المدينتين عادة قبيحة في البيع والشراء ، وذلك أن الباعة يبيعون الطلبة نسيئة<sup>(187)</sup> ويتقاضونهم ما هو فوق القيمة . فإذا أراد غريب أن يشتري شيئاً تقاضوه قيمة النسيء إلا أن يكون الشاري عارفاً بأحوالهم فيقول : إنَّما شرائي بالنقد . وقلَّ

(187) يبيعونه بنسيئة : يؤجلون قبض الثمن ؛ فيرتفع ثمنها . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

وعليه قولِي في خائن الاخوان :

لا يعرف الخبز ولا الملح إذ

يأكل في غيبته لحم أخيه<sup>(190)</sup>

كذا نقلته ولعله قال : يأكل لحم الأخ في غيبته ، ليتزن البيت .

وإذا انقلبت الكرسي برجل عزب كان دليلاً على أن الرجل لا يتزوج في تلك السنة ، وهو غريب فإنهم شبَّهوا المرأة بالكرسي وهو عين ما عنته العرب بقولهم : قعيدة الرجل أمراته . وإذا تأجَّج لهيب النار وسُمع له حِسُّ استُدِّلَ بذلك على نزاع ونقار يقع بين أهل البيت ، وإذا طارت جمرة من النار ووضعتها عند أذنك ، وسمعت لها طنيناً دلَّ ذلك على قبضك دراهم ، ورؤية نحو عَكَر متقسَّم إلى أجزاء في قَدَح دليل على سفر طويل ومشاق . ووقوع سكين على الأرض دليل على قدوم غريب . وإذا عزم إنسان على سفر وأكل نصف بصلة وترك الباقي كان دليلاً على عدم توفيقه . وحكَّ العين اليمنى دليل على البكاء ، واليسرى على سرور غير متوقَّع ومعه ضحك . وإذا اختلجت الشفة العليا وأحكَّت كان ذلك علامة على قبلة ، أو الذقن فعلى لحم طري ، أو النحر فعلى اتخاذ منديل ، أو الأذن اليسرى فعلى مدح يثني عليك به أحد ، وبالعكس ذلك الأذن اليمنى ، أو الأنف فعلى شيء يغيظك ويهيجك ، أو الكفَّ اليمنى فعلى قبض دراهم ، أو أخمص الرجل كان علامة على مخاطبتك رجلاً أجنبياً ، أو الكوع فعلى رقودك في غير فراشك ، ووضع مفتاح البيت على مائدة ونحوها مؤذن بالشؤم ، فالأولى أن يعلَّق في مسمار ، أو وتد .

وإذا مات أحد وتبيَّست أعضاؤه حتى لم يمكن ليَّها كان الموت مفرداً وإلا فلا بدَّ من أن يأتي على آخر . ونباح الكلب تحت شبَّاك دليل على الموت ، وكذا إذا حاولت هرة أن تدخل من الشبَّاك ، أو دبَّت الخنافس على الموقد ، أو وقفت الساعة بحيث تكون نظيفة الآلات .

(190) كذا ورد البيت في الطبعة الأولى ، وإذ هنا لا يستقيم بها وزن الشطر الأول بل عليه أن يقول : لا

يعرف الخبز ولا الملح إذا . أما الشطر الثاني فمستقيم الوزن ، لأن التفعيلة الأخيرة لحقتها علَّة

التذييل . والبيت من بحر الرجز ، وتفعيلاته مطوية ما عدا التفعيلة الأولى . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

مفتاحاً في الإنجيل ، ثم يربط الإنجيل بخيط على شكل الصليب ، ويجعل حلقة المفتاح بارزة منه ثم يتلو الآيتين السادسة عشرة والسابعة عشرة من الفصل الأول من سفر راعوث ، فإذا دار المفتاح كان ذلك دليلاً على إخلاص قلب الشخص المضمّر والا فلا . والزواج في شهر أيار شؤم . وإذا أراد أحد أن يفتح دكاناً أو يتعاطى مصلحة مهمة فلا يبدأ به يوم الجمعة ، بل يوم الخميس ، أو السبت ، وهذا التطير فاش عند جميع رؤساء المراكب . وفي السنة الكبيسة تلبس النساء ثوباً أحمر تحت القفطان .

وكلّما أكثروا من أصناف الحلواء في رأس السنة زاد استبشارهم بخيرها وبركتها . وفي عيد الميلاد يصنعون نوعاً مخصوصاً من الحلواء يسمونه «كرسمس بودن» ويبقون منه شواية<sup>(192)</sup> في الصوان<sup>(193)</sup> تبركاً بها . وإذا مضى عليهم هذا العيد من دون هذه الحلواء أوجسوا النقص والقلة سنتهم كلّها . وإذا كانوا غائبين عن بلادهم ولم يقدرُوا على اتخاذها بعثوا إلى أهلهم يستهدون لُمَاظة<sup>(194)</sup> منها فيبعثون لهم في كتاب بمثل قلامة الطفر . وفي ليلة ذلك العيد يوقدون شموعاً كثيرة وناراً متأججة ، ويزينون الغرف بتلك الأغصان التي تقدّم ذكرها ، ويظهرون الفرح والابتهاج ، وإذا مشت امرأة من تحتها حقٌّ للرجال أن يُقبَلوها . وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر أيلول ويسمّونه ميكلمس ، أي عيد ميكال يأكلون الوز ، وفي السادس من كانون الثاني يصنعون كعكاً مخصوصاً يُسمّونه كعك اليوم الثاني عشر .

ومن أوهامهم أيضاً الاعتقاد بظهور روح الميت عند قبره . وهذا الوهم فاش حتى عند عامّة سكان المدن ، فقد كنت أرى في كلّ ليلة جمعاً عظيماً واقفين عند إحدى المقابر لما شاع عندهم من أن روحاً تراءى فيها لبعض المارين في هيئة بشر بلباس أبيض . فأوجب انحشارهم هذا إحراق وجه المقبرة بالجير لنفي تردّد الروح . أو لعله كان حيلة في منع اجتماع الطعام لأنهم حيثما اجتمعوا اجتمع الشر . وفي لندرة موضع اسمه «هاتن كاردن» فيه عين ماء يزعمون أنه يجري منها دم في كلّ يوم عند

(192) الشواية : القليل من كثير . (م) .

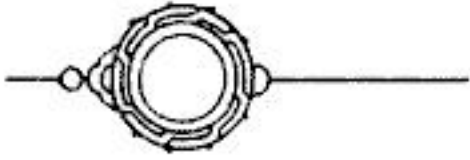
(193) الصوان : ماتحفظ فيه الثياب وغيرها . (م) .

(194) اللماظة : القليل من الطعام يتلمظ به . (م) .





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



وفي بلاد الفلاحين ، بل في المدن الجامعة أيضاً نساء يدعين علم المغيبات بطرق مختلفة منها التأليف بين أوراق اللعب المزوقة ، وذلك بأن تصف منها ثلاثة صفوف ، كل صف يشتمل على سبع ورقات ، ثم صفّاً رابعاً من خمس ، أو خمسة صفوف كل منها يشتمل على خمس ورقات ، ثم صفّاً آخر من اثنتين ، وتضمّر أن إحدى المزوقات الحمر كناية عن امرأة وإحدى السود كناية عن رجل أسمر ، وتنسب لكل من الورقات المنقطة خاصية من البخت وضده ، وتقابلها بتلك المزوقات التي عليها الإضمار ، ثم تستخرج من تلك المقابلة دلائل على ما يحدث بعبارة لا تخلو من الإبهام والتوجيه .

وقد اتفق لي وأنا مقيم في بيت قسيس من فضلاء الإنكليز أن حضرت امرأة من هؤلاء فقال لي : ها هي الشيطان . وذكر الاسم بالعربية ، فقالت : كلا ما أنا شيطان بل مبصرة البخت . فسألته أن تبصر لي بختي ، فألّفت بين تلك الأوراق ثم قالت : ستكون سبباً في تسفير رجل أسمر إلى بلاد بعيدة ، وإن امرأتك تأخذ في سفر طويل ، ويكون حديث في شأنك بعد مدة ، وتحصل على هدية من الألباس ، وتذهب إلى جماعة عظيمة ويدعوك رجل من سادة الناس ؛ فتسافر إليه ويحصل توفيق لولدك وينال هدية ، وإن امرأة سمراء تساعدك على نوال أربك ، وإن رجلاً أسمر يستدعيك إليه ، وتعديل امرأتك عن السفر ، ويحدث لك سفر غير متوقع مع رجل أبيض ، وامرأتك تأخذ هدية ، وإن رجلين أسمر وأبيض يشتركان في تسفير امرأة ، وإن سيّدة زهراء يكون لها مداخلة في أمرك ، ولك صديقة من النساء سمراء . وقد وقع ذلك كلّه إلا هذه الثلاث الأخيرة فإنني لم أتحققها ، وكثيراً ما تذهب النساء الممتهات بالخدمة والممتحنات بالعشق ، إلى هؤلاء العرافات ويسألنهن عن أحوالهن ، ويعطينهن نصف ما تملك أيديهن . واتفق أن امرأة سافر عنها زوجها وانقطع خبره عنها مدة طويلة ، ثم بلغها خبر وفاته ، فتزوجت آخر فلقيت عرافة ، فقالت لها العرافة : تعالي أخبرك بما لا تعلمين . ثم ذكرت لها من جملة كلام أن زوجها الأول حي ، وأنه عازم على الرجوع ، فدخل الرعب في قلب المرأة ، فألقت نفسها في النهر . وقدر لها

أن بَصُرَ بها رجل كان على الشاطئ ، فبادر إليها وأنجاها من الغرق . وأخرى جُنَّت من تهويل عرّافة عليها ، فكانت تقول في حال جنونها : مبصرة البخت الورق مبصرة البخت الورق . ومنهن أيضاً من تبصر البخت برؤية الكف . وقد رأيت كتباً مطبوعة في علم الكف ، والهيئة فيها من الأحكام نحو ما في كتبنا .

ومنهن من تدّعي إحضار الغائب وتشخيصه لعين السائل في مرآه ونحوها ، كما في مندل مصر . وفي أخبار العالم عدد 693 من شاء أن يعلم ما يجري عليه في المستقبل من الشغل أو السفر أو الزواج أو تعاطي مصلحة فعلية أن يسأل المنجم داود ستلا المقيم في «إدورد ستريت مادنلان» بحيث يوقفه على يوم ميلاده وعلى جنسه ويرسل إليه اثنين وعشرين طابعاً ، فإنه ينبئه بالتفصيل عن كل شيء سواء كان بالمكاتبه أو مشافهة . وفيها وكذلك المنجم ملفيل وجوابه عن المسائل يكون نظماً ، وعلى السائل أن يرسل إليه اثني عشر طابعاً .

وفيها من كان دأبه الشغل ، ومعه بعض شلينات ، ورام أن يتعلّم في أسبوع واحد حرفة مكسبة فعليه بالمنجم كورتني فإنه يهيئ له وجهاً للعمل بما عنده من القليل ، حتى يمكنه أن يكسب بعد ذلك من ثلاث ليرات إلى عشر ، وهو على هيئته ، وهذه الحرفة هي من أكرم الحرف ، وقد باشرها المنجم منذ سنين ، وغبط بها فلذلك يعرضها على الطالبين بحيث يحرز منهم ثلاثين طابعاً .

وفي بعض صحف الأخبار ما نصّه : «قد صار أهل لندرة الآن جديرين بأن يكونوا ضحكة لأهل الريف لا اعتقادهم بالسحر والشعوذة ، ولم يبقَ من حاجة إلى الذهاب إلى بلاد الفلاحين لنستمع أن النساء اللواتي لا عيب فيهن سوى الفقر والههم يستطعن على أن يمنعن البقرة عن الحلب ، ويعظن المزارعين عن أعمالهم ، ويجرّن الرائد من فراشه من غير أن يحس به ، فإن هؤلاء المدجّلات المدلسات يوجدن الآن في لندرة مع كونها معدن المعارف والنور . وليس المتردّدون عليهن من سفلة الناس ، وحسبك دليلاً ما جرى منذ أيام في ديوان كلدهال حيث أحضر بعض الشرطة امرأة من هؤلاء لكونها كتبت رقاع وعيد وتهديد إلى بعض التجار ذوي الشأن ، قال : ولما دخلت حجرتها وجدت عندها أربع نساء مترديات باللباس الفاخر أحسبهن من بنات التجار ، فلما سألتها عنهن ، قالت : إنّما قصدتني لعلمهنّ بأنني أبصر البخت .

وقال آخر : شكنا بعض الناس إلى قاضي سري بأن أحد معارفه يسمع في الليل ضجيجاً وعجيجاً وضرب مطارق فلا يقدر أن ينام .

قال : فلمّا سرت إليه سألته عمّا يقاسي .

فقال : إن الناس يفيضون في حديث فلانة امرأة فلان .

قلت : وما بينك وبين زوجها؟

قال : لا شيء إلا كلمات دارت بيننا منذ سنة .

قلت : وما يصنع بك الآن ؟

قال : يبعث أناساً يضربون بالمطارق ويضجون ويزأطون الليل كله ؛ فما يدعني أهجع ، ولا أحداً من الجيران ينام .

قلت : أتعرف أسماءهم؟

قال : نعم ، ولكن زوج المرأة هو الذي يغريهم بهذه الأذية .

قال : فأحضرتُ الزوج وأخبرته بشكوى الرجل .

فقال : جزاء وأقل جزاء .

قلت : كيف؟

قال : لأنه يأتي كل ليلة إلى بيتي ويخطف امرأتي من الفراش ، ويخرج بها من الشباك ، ويضبطها عنده إلى الساعة الرابعة بعد نصف الليل ، ثم يأتي بها منهوكة مدهوكة .

قلت : ألا تخجل من أن تقول هذا الكلام وأنت شيخ ، وإني لما لقيتك آخر مرة قلت لي : إنها عليلة ، فهل أفاقت الآن؟

قال : لا ما دام الرجل يخطفها فلن تفيق أبداً .

قلت : قل لي ما يفعل وعليّ عقوبته .

قال : وأيّ عقاب لمن له تسعة أعمار كالهر؟

قلت : هل رأيتَه عياناً يأخذ امرأتك؟

قال : لا لأنني أكون راقداً .

قلت : هلا ربطت يديها إلى عنقك حتى تستيقظ عند ذهابها .

قال : لن ينفع في هؤلاء الناس حذر .



قلت : ما السبب الذي حملك على سوء الظن بهذا الرجل؟

قال : ذلك الرجل المبارك الذي أراني وجهه .

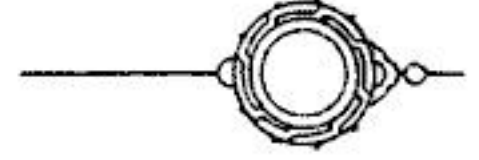
قلت : من هو؟

قال : هو الذي شفاها بعد أن عجزت عنها الأطباء . قلت : كيف أراك وجهه؟

قال : أخذ نعل فرس وأحماها حتى صارت كالجمر ، ثم أغلق الشبّاك ووضع النعل

في ماء قدر ، وقال لي : أيّ وجه ترى في الدخان؟ وأشهد أنّه كان وجه زوج المرأة . . الخ .

### الجريمة في بلاد الإنكليز



فأمّا ما يحدث في بلاد الإنكليز من تسميم الأزواج بعولتهن ، والوالدين أولادهم ، وقتلهم وبالعكس ، ومن الانتحار يحدث أيضاً في غيرها ، وأعظم أسبابه العشق والحرمان ، إلا أنّه بالنسبة إلى هذه البلاد لا يذكر . ولنورد لك نبذة من ذلك لتقيس عليها .

حكى صاحب أخبار العالم أنّ رجلاً ذبح ثلاثة أطفال له بالموس في وقت واحد ، وكان أصغرهم رضيعاً ، ثم ذبح نفسه . فلما سُئِلت زوجته عن ذلك قالت : إنني غادرت مع الأولاد سليماً معافى فلما رجعت وجدتهم ثلاثتهم جثثاً مطرحة ، وزوجي إلى جانبهم ، ولا أعلم سبب ذلك . وزعم بعض معارفه أنه قتلهم خوف الإملاق .

ومنها أن امرأة سُكيت بأنها قتلت أصغر أولادها ، فعند الامتحان علم أنّها قتلت من قبله سبعة ، وأنّه كان الثامن مع أنّها كانت تتظاهر بالصلاح والتقوى ، وتذهب إلى الكنيسة في كل يوم أحد ، وتلازم دراسة التوراة . ولما سُئِلت عن ذلك قالت : قد قتلتهم خوف الإملاق .

ومنها أنّ رجلاً كان له امرأة وأربعة أولاد منها ، وكان الرجل والأولاد منتظمين في سلك جمعية من أصولها أنه إذا مات أحد من أعضائها يُدفع لوارثه خمس ليرات ؛ فطمعت المرأة في الدراهم حتى سمّت زوجها ، وكان ابن خمس وخمسين سنة ، وقبضت المال ، ثم سمّت ابنها الأكبر ، وهو ابن ست وعشرين سنة ، فمات ، وقبضت



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

رجل اسمه بالمر 7,532 ليرة ، وقد وقع بعض تحرير هذا الكتاب أن أُقيمت دعوى على شاب من الأغنياء بعدم رُشده عن التصرف في أملاكه ، فلزم لإثبات ذلك إحضار شهود من الروسية وغيرها ، فكان المصروف على كل ساعة مائة وستين ليرة ، وبعد أن بلغ ستين ألف ليرة خرج الحكم برُشده .

ويمكن تقسيم شرعهم إلى أربعة أقسام :

الأول : ما تناقلوه من أحكام الرومانيين والنرمانديين والصكسونيين الذين فتحوا بريطانيا ، ويدخل في ذلك أمور من قبيل العادة . وفي الحقيقة فإن جُلّ عاداتهم سنّة لهم . فما أجدرهم بأن يكون لهم لفظه توافق الدين عندنا فإنها بمعنى الديانة والعادة ، فأرى أن أخلعها عليهم سواء قبلوها أم لا .

الثاني : ما بُني على العدل والإنصاف ومراعاة المصالح مما لم يرد فيه نص ، ولم يجر فيه حكم ، فإذا حدث أمر من ذلك أحيل على محكمة العدل ، فيحكم فيه القاضي والجوري بالرأي بحسبما يترجّح عندهم أنه الأصلح . والثالث : أحكام مجلس المشورة وهي غير متناهية .

والرابع أحكام ديوان الكنيسة .

وليس في شيء من هذه الأقسام ذكر الطاهر والنجس ، وما يؤكل وما لا يؤكل . وعلى حيض المرأة ونفاسها ، وحدادها ، وعدّتها ، وما أشبه ذلك مما لا بدّ من ذكره في كتب الفقه الإسلامية ، ومع ذلك فيمكن أن يُقال : إنه ليس أمر من الأمور المتعارفة إلا وهو مقيد بحكم من هذه الموارد الأربعة ، حتى إنهم يكتبون في المناصع<sup>(199)</sup> : أصلح ثيابك قبل الخروج إشارة إلى أنه لا يزور بنطلونه وهو في الشارع ، أو أنهم يكتبون : « لا يُلصق هنا أوراق تعريفات » بل أصحاب المطاعم أيضا ينهمون إلى وضع شيء من الأحكام فتجد أحيانا لوحاً منصوباً قد كُتب فيه : التسليم عند التسلم ، أي نقد الثمن عند وضع الأكل بين يدي الأكل ، أو لا يؤذن في استعمال الذخان هنا ونحو ذلك .

ومتى كانت جريرة الجاني صغيرة أجري الحكم عليها في الحال ، وإن كانت بين

(199) المناصع : الأماكن التي يتخلّى فيها للبول ، أو لقضاء الحاجة . (م) .

حُبس إلى أن ينظر فيها ، وحينئذ يرخص للمذنب في أن يطلب كفلاء يكفلونه فيخرج من السجن ، ويتعاطى أشغاله إلى أن يُعاد عند بت الحكم فإن لم يجد كفلاء بقي في السجن .

ومما يُرى منكرًا من أحكامهم إجازة شهادة الأولاد دون البلوغ ، غير أن القاضي يستحلفهم أولاً وينبهم على خطر اليمين والشهادة هذا إذا كان في الدعاوى الصغيرة ، أي التي لا توجب القصاص بالقتل . والويل ثم الويل لمن وقع في يد أحد من فقهاء الشرع ، فإنهم أدهى خلق الله ، ولا يعجزهم أن يصيروا الظلام نوراً ، والنور ظلاماً ، ودونك مثالاً واحداً لذلك : وهو أن بعض المتكيسين الذين يُدلّون بجمالهم دون مالهم عشق بنت أحد الأغنياء ، وإذ كان يعلم أن الغنيين للغنيات ، والمقلين للمقلات خشي أن يخطبها من أبيها فيسفه ويُجبهه<sup>(200)</sup> ؛ فتوسّل إلى ذلك بواحد من هؤلاء الدهاة ، ووعدته بصيلة حسنة ؛ فقال له : سأتروّى في أمرك فأتني غداً . فلما كان الغد أتاه الشاب فقال له الفقيه : رأيتك لو شاء أحد أن يقطع أنفك ، ويعطيك عشرين ألف ليرة أفكنت ترضى قال : كلا ، ولو أعطيت ضعفيها . فانطلق الفقيه لساعته إلى أبي البنت وخاطبه في أن يزوج ابنته من الرجل ، فقال له : كيف أصاهره وهو فقير وليس له غير جماله؟

قال : وعنده أيضاً جوهرة أعطي فيها بحضرتي عشرين ألف ليرة فأبى أن يبيعها ؛ فتغير الرجل عن إصراره ، وما زال به حتى أغراه بتزويج ابنته . والبارع من هؤلاء الفقهاء لا يباشر دعوى من الدعاوى الخطيرة إلا إذا قبضت كفه على ثلاثمائة ليرة .

## كتاب الصكوك

فأمّا كتاب الصكوك فلما كان جُعّلهم بحسب السطور كانت عباراتهم مملّة لما فيها من التكرار غاية الإملال ، مثال ذلك : باع زيد بن بكر داره الفلانية لخالد بن عمرو بكذا وكذا بيعاً خاصاً مطلقاً ، وأقرّ زيد بن بكر بأنّ داره الفلانية ، التي باعها لخالد ابن

(200) يسفه : ينسب إلى السفه والحماقة ، ويجبهه : يُردّ عن حاجته وهو مكره . (م) .

عمرو بكذا وكذا ، قد انتقلت من ملكه انتقالاً مطلقاً ، وصارت في حوز خالد بن عمرو ، فصارت دار زيد بن بكر ، والحالة هذه في تصرف وملك خالد بن عمرو ملكاً مطلقاً خاصاً .

ويقع كثيراً أيضاً في أحكامهم الديوانية مثل هذا التعبير الآتي : إذا أخذ شخص أو أشخاص شيئاً ، أو أشياء من موضع كذا ، أو مواضع كذا ، وجب القصاص على ذلك الشخص ، أولئك الأشخاص الذين أخذوا ذلك الشيء ، أو تلك الأشياء من ذلك الموضع ، أو تلك المواضع . وهذا ضدّ عبارة كتب الفقه الإسلامية ، فإنها أخصر ما يكون حتى تحتاج إلى شرح وحاشية وفقه يفسرها .

وقد يقع التكرار في عبارة كتاب الصكوك في البلاد الإسلامية ، وهم الذين يتعيّشون من كتابتهم . ولقد تعجّبت كثيراً مرّة من قراءة صكّ كتبه بعض كتاب المحاكم بتونس ، مطلعته : الأجل الوجيه الفاضل الموقر محمد بن الحاج أحمد . قال بترو المالطي النصراني : إنه أعطاه كذا وكذا ، يعني أنّ المالطي ادّعى على الأجل محمد بكذا ، وإنّما فصل هذا الكلام ، وجاء بهذا التركيب السخيف كراهة أن يذكر اسم المالطي قبل محمد ، وهو من الهوس الذي يفضي إلى خرم قواعد العربية . وأكثر أحكام تونس على هذا المثال من اللحن والخطأ . وأقول في الجملة : إنّ عبارة كلّ الفقهاء فيها خروج عن قواعد النحو واللغة .

## نبذة عن كلام الإنكليز

أمّا كلام الإنكليز فإنّه لما كان مورده اصطلاح اللغة وعرف التخاطب رأيت من الواجب أن أذكره بالتفصيل في فصل على حدة أجعله خاتمة لهذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، وإنّما أقتصر منه على نبذة فأقول : إنّ تحيتهم في الصباح هي أن يقولوا صباح طيب ، وفي المساء مساء طيب ، ثم يردفوها بقولهم : هُوَ دُو يُو دُو ، وترجمتها : كيف تعملون أنتم تعملون . وهو سمة تُنبئ عن مزيد ميلهم وتوقانهم إلى العمل ، حتى إنه يوجد في لغتهم نحو عشرة ألفاظ مرادف العمل ، وهو أكثر ما عندهم من المترادف . ولا يخاطبون بضمير المفرد إلا الباربي تعالى ، أو في الشعر ، وهو ضربة



لازب عند طائفة من جنسهم يُقال لهم : كويكرس ، وسيأتي ذكرهم . فأما عند الفرنسيين فاستعماله إنما هو في مخاطبة الإدلال كأن يكلم المحب محبوبته ، أو الوالد ولده . وتحية هؤلاء ، بعد صباح الخير ، كيف أنتم تحملون أنفسكم؟ وكلتا التحيتين لا معنى لهما كما قال فلتير .

ومتى خاطبت أحداً من فلاحي الإنكليز وهو مصغ إليك أبدى همهمة عند كل جملة ، أعني قوله : هم . فكأنها عندهم حرف بمعنى نعم ، وعند كل فقرة تقضي بالاعتبار ، يقول : اه . وإذا هم خاطبوك نفضوا رؤوسهم ، ولا يكادون يشيرون بالأيدي كما هو دأب أهل مالطة وإيطاليا ، وغيرهم ، وليس للهجتهم مطلقاً نغمة مطربة سواء تكلم بها جاهل ، أو عالم ، أو ولد أو امرأة ، إذ ليس في كلامهم مد ولا حركات طويلة . وأصوات الرجال من حناجرهم بخلاف اللغة الفرنسية ، فإن فيها غنة تستحب من الأولاد والجواري جداً ، وربما طرب لها من ليس يعرفها .

ومع أن لغة الإنكليز من اللغات المستحدثة ولم تشهر إلا وأعقبها التمدن ، وطبع الكتب ؛ فلكل أهل صقع عندهم كلام ولهجة خاصان بهم فلا يكاد أحدهم يفهم من صاحبه شيئاً بمنزلة ما عند أهل الشام والمغاربة من الفرق . ومن عادة النساء إذا كلمن أحداً من الخاصة أن ينحنين له عند كل سؤال وجواب ، وعادة الغلمان أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم ، وكذا هي عادة الخادم مع مخدومه عند كل سؤال وجواب ، حتى القسيسون أيضاً يرتاحون لهذه الدغدغة ، وإذا خاطبوا أحداً بكلام توبيخ وغيظ قالوا له سر ، وهي بمعنى سيد ، حتى إنهم يقولونها عند طردهم كلباً ونحوه ، فيقولون مثلاً : احساً يا سيد ، وقد يستعملونها أيضاً لتعظيم المخاطب وإجلاله . ومن الغريب في هذه اللفظة أنها بالفارسية بمعنى رئيس ، ووافقها أيضاً في العربية لفظة السري! فلا أدري أي اللغات هي الأصل لها .

والرجل يقول عن زوجته : معلمتي والمرأة تقول عنه : معلمي ، وإذا خاطب زوجته أحد من الخاصة بلفظة مدام كان ذلك إشارة إلى تنافرهما ، فخطاب الرضى إنما هو أن يقول لها : يا محبتي أو عزيزتي . وربما قالوا : يا قلبي ، ولا يكادون يفهمون يا روعي ويا عيني . ويكثرون من ذكر الشيطان في حالتها التعجب والاستفهام ، فيقولون أين الشيطان كنت ، ويضيفون لفظة مان بمعنى الرجل إلى كل شيء ، فيقولون

للسقاء : واطرمان أي رجل الماء ، ولحامل الرسائل بوسط مان وهلم جراً .

## عادتهم في المكاتبة

ومن عادتهم في المكاتبة إذا أراد أحد من الأعيان أن يكتب إلى شخص يجهله أن يقول : فلان يسلم على فلان ، ويسأله عن كذا ، وفي المرة الثانية يكتب له سر ، وفي الثالثة أو الرابعة دير سر ، أي سيدي العزيز ، وإذا خرق حجاب الكلفة بينهما كتب له مَي دير سر ، أي سيدي العزيز ، وإذا استحكمت الألفة كتب له عزيزي الخواجا فلان ، فإذا طالت كتب عزيزي فلان .

ولهم عادة قبيحة حين يكتبون أسماءهم في آخر الكتاب بما عُرف بالإمضاء وذلك أنهم يكتبونها مثبجة<sup>(201)</sup> معمة بحيث لا يقدر أحد على قراءتها إلا من مرّن عليها ، فعلاج ذلك لمن يجهل الاسم أن يقطعه من الرسالة ، ويلصقه على ظهر المغلف ، ويرسله إليه حتى يبينه في المرة الثانية . وأصل ذلك أن من يكتب عندهم خطأ حسناً يُزَن<sup>(202)</sup> بأنه معلّم للصبيان ، أو كاتب عند تاجر . فأما من يعش من أملاكه فلا يلزمه ذلك ، ويقابله عندنا قبح عادة الذين يمضون أسماءهم ويهملون عنها الإعجام . ولا أدري ما سبب هذه العادة الذميمة الموجبة للإبهام والالتباس ، والظاهر أن منشأها الكبر أيضاً ، فإن المكاتب يظنّ أنّ اسمه قد بلغ من الشهرة والتنويه بحيث لم يُحتج إلى إعجابه ، والدليل على ذلك أنهم يكتبون تحت أسمائهم حرف الميم كناية عن معروف .

وبما ذكرت لك من اصطلاح الإنكليز في افتتاح رسائلهم عرفت أنهم لا ينعنون المكتوب إليه بالأجلّ والماجد والأكرم والمفخم ، وغير ذلك ، إلا أنهم يطيلون غالباً في الإمضاء ، فيكتبون أنا باق يا سيدي عبدك الأحقر المطيع فلان . وقد تكون أحياناً نوعاً من التهكم ، وذلك إذا كان الكتاب مشتملاً على التوبيخ ، أو المناقشة . وعادة

(201) مثبجة : معمة ، وثبج الكلام والخط لم يبينهما . (م) .

(202) يُزَن : يُتهم . (م) .





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

ومن ذلك : الجِدَّة في المساعي ، وعدم الشماتة ، وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة أو لنكاية الخصم في الكتابة . ولو كان عندنا بريد على الصفة التي هي عندهم ، لكنت ترى في كلِّ يوم أهاجي وأحاجي تُلقى في البوسطة ، ويُبعث بها كما يُبعث بالرسائل . نعم إنَّ عندهم يوماً مخصوصاً في السنة يتراسل فيه المعارف برسائل مزحجية ، ولكن من دون أذى وإيجاب تَبِعة . ومن ذلك عدم التهافت على الحسد ، فإذا رأوا عندك مثلاً متاعاً نفيساً لم يكن عندهم مثله لم ينفسوا عليك في إحرازه ، ولا يقولون : يا ليت كان لنا مثله . وخصلة النفاسة والحسد قلما يخلو منها في بلادنا جسد .

ومنها أَنَّهُمْ يَضْبُون<sup>(206)</sup> على ما بهم ، فلا يتظلمون ، ولا يجدفون أيَّ يستقلون عطاء الله ، ولا يقولون ليس لنا ، وليس عندنا ، فكلُّ واحد منهم يريك أَنَّهُ مستغن عنك ، ولا تكاد تسمع خادماً يطعن في مخدمه ، أو خادمة تُعيب مخدمتها ، وإن كانا يكابدان عندهما . أمَّا في بلادنا فقلما تجد خادماً راضياً عن سيِّده ، بل يعتقد أَنَّهُ هو أولى بالسيادة ، أو أن شرف مخدمه متوقَّف على بقائه عنده .

ومن هذا القبيل عدم بخس الناس حقَّهم ، فإذا نبغ أحد فيهم في فنٍّ وصنعة لم يجد من يتصدَّى لتجهيله ، وتخطئته حتى يوقفه عن تقدِّمه ويُطفئ جذوة قريحته ، وربَّ دوحه نشأت عن فرع . لا بل يجد من ينشطه ويسرله أسباب العلم ، أما في بلادنا فإذا نبغ أحد في شيء بادره حُسَّاده بقولهم : هو مدَّع ، هو حمار ، هو متطفل . ومن ذلك أَنَّهُمْ لا يتشَبَّثون بأعقاب الأقاويل ، ولا يأتون النميمة والغيبة إلا قليلاً . فإذا سكن ما بينهم غريب وسمعوا عنه ما يكرهونه منه فلا ينقلون إليه ما سمعوا عنه ، بل لا يهتمُّهم ما قيل فيه ، وإنَّما يعاملونه بما ظهر لهم من حسن سيرته خلافاً للفرنسيس ، فإنَّهم مثلنا في التعلُّق بقال وقيل ، وفي الاستفحاص عن أحوال الجيران ، بل أهل البلد . ولما كنت في باريس كنت أتردَّد على الكونت دكرانج ترجمان الدولة ؛ لما كان عنده من البشاشة بالغريب ولين الجانب ، وكان هو أيضاً يتردَّد عليَّ إذا لزمه ترجمة أو إنشاء رسالة بلغتنا ، وإذ كنت أكلِّمه ذات يوم في مصلحة لي ، قال

(206) يضبون على ما بهم : يخفونه . (م) .

لي : إنني ليعجبني حسن تصرفك فينا ، ونزاهة نفسك ، وذلك مما يدعوني إلى إجابة سؤالك ، غير أنني أنكر عليك شيئاً شاع عنك .  
قلت : اذكر لي حتى أتجنّبهُ .

قال : إنَّ الناس يقولون : إنَّك قدمت إلينا جاسوساً من رف الإنكليز ، وإذا كان ذلك حقاً فلا يسعني إسعافك بحاجتك .

قلت : بودّي لو كنت جاسوساً إذن ما كنت لأكلّف أحداً بشيء ، فإنَّ جاسوس الإنكليز يستغني بوظيفته عن أن يتوصّل بأحد إلى نوال أربه .

ولا شكّ في أن الموماً إليه سمع عني ذلك ، فإنَّ من طبع الفرنسيين ، ولا سيّما شرطة الديوان ، أن يتجسّسوا عن أحوال الغريب بينهم ، فإذا علموا أنه يعيش بلا حرفة يتعاطاها حكموا بأنّه إمّا بأن يعيش من رزقه ، أو من حيلته ، وحيث كانوا يعلمون أنّي لم أكن أتعاطى حرفة ، ولست غنياً ذا عواجل وولائم استنتجوا من هاتين المقدمتين أنّي جاسوس . ومثل ذلك لا يشغل به أحد من الإنكليز باله ، فغاية ما يرومونه من الغريب أن يحسن تصرفه ، ويقضي دينه ، إلا أنّ من يسكن عندهم في القرى يلزمه من باب المجاملة والمخالقة أن يذهب إلى الكنيسة في يوم الأحد ، وأن ينام فيها . فأما في المدن الجامعة فلا يلزمه ذلك ، وقد شهر مرّة في صحف الأخبار أنّ الملكة أهدت إلى بعض الجنود مندبلاً قد كُفّ بكفّ ابنتها ، فلم يعبأ بهذا الخبر أحد ، ولا ظنّ بها أحد سوءاً ، ولو شهر أمر مثل هذا في بلادنا عن أميرة لبقني شغل الخواطر والألسن أحقاباً .

ومن ذلك كلامهم بصوت منخفض وهي صفة تكاد أن تكون من خصوصيات نسائهم . وفي بعض البلاد قد تسمع للنساء زعيفاً<sup>(207)</sup> وزعيفاً كأصوات الجن .  
ومن ذلك حسن الترتيب والتدبير في الأشغال والمصالح والتوقيت للعمل فلكلّ شيء عندهم وقت ، ولكلّ وقت شغل ، فإذا اتفق أن زارهم أحد في ساعة الشغل لم يتحاشوا أن يقولوا له مثلاً : قد أنسنا بك ، ولكن علينا قضاء ما لا بدّ منه من المصالح ، فلا تؤاخذنا ، وزرنا في يوم كذا ، فينصرف عنهم عاذراً لا عاذلاً لأنّه هو

(207) كذا وردت وأحسب صوابها : عزيفاً : والعزيف : صوت الجن . (م) .

أيضاً يعاملهم بمثل ذلك . أمّا عندنا فربّما تعطلت مصالح الإنسان بكثرة زواره حتى يضطر أخيراً أن يحمل وصادته ، ويقول : شفى الله مريضكم .

وهذه الصفة أي حسن الترتيب يظهر أثرها بزيادة من أهل الرئاسة والسيادة والإدارة منهم ، فإنّ رجال الدولة إذا أرادوا أن يباشروا أمراً من الأمور الجسيمة ، فإنّما يباشرونه بغاية الإحكام والضبط بحيث لا يوجب تغييراً ما في الأحكام ، ولا إزعاجاً بشيء على الرعية ، فإذا اضطروا مثلاً في وقت الحرب إلى تجنيد جيوش وتجهيز بوارج ، وذخائر فلا يكون ذلك موجباً لاضطراب الناس ، وتغيير أحوالهم ، أو لغلاء الأسعار .

وإذا شاؤوا أن يجعلوا على الناس ضريبة لسدّ مصاريف الحرب ، أحيل ذلك على مجلس المشورة النائب عن الجمهور ، ومعلوم أن الإنسان ليهون عليه أن يؤدّي شيئاً على يد نائبه أكثر من أن يؤدّيه على يد غالبية قاهرة . وفي بعض البلاد إذا شرعت الدولة في تجهيز العساكر للحرب رأيت جميع الناس يموجون في الأراجيف ، ويخوضون في التهاويل ، فيظلم إذ ذاك القوي الضعيف ، ويأخذ المرء بشأره من خصمه ، وتختل أسباب التجارة ، ويعدم الأمن بين المتعاملين ، فتكون غائلة الحرب مشعوراً بها في داخل المملكة أكثر من خارجها . وقد كانت مدّة إقامتي في هذه البلاد قبل حرب الروس مع الدولة العلية العثمانية ، وفي خلالها وبعدها فلم يتبين لأحد فرق في شيء ما أصلاً .

### مصلحة البريد (البوسطة)

ويلحق بذلك أن تحصيل لوازم المعاش في الصيف والشتاء يكون شرعاً فلا يتعدّر وجود شيء منها بأحد الموانع ، وفي غير البلاد متى دخل الشتاء ، وهطلت الأمطار تعطلت الطرق ، وانقطع المجلوب من المأكول والمشروب ، فترى كل واحدٍ منجحراً في بيته إلى أن تتيح له فرصة الخروج ، فإذا لم يكن الإنسان قد حاكى النملة بأن اتخذ مؤنته في داره صيفاً هلك جوعاً .

ومن أعظم ما يؤول إلى تنظيم الأمور ترتيب البوسطة وضبطها ، ففي سنة 1855



وضع في بوسطات لندرة وحدها 46,000,000 مكتوب ، وأرسل إليها من بوسطات الممالك في سنة واحدة 100,000,000 ولم يسمع إلى الآن أن مكتوباً واحداً منها فقد إذا كان صاحبه موجوداً . وسيأتي ذكر ذلك بالتفصيل عند ذكر لندرة وما فيها ، وجعل كل مكتوب إذا أرسلته داخل المملكة نصف قرش ، ولا فرق في قرب المسافة وبعدها . وهذا المبلغ القليل تشتري به طابعاً مصمماً ، وتلصقه على عنوان الكتاب . وقد يبعث بهذه الطوابع من بلد آخر في ضمن الرسائل بدلاً من الفلوس ، فإذا سمع أحد مثلاً بذكر كتاب طبع حديثاً أرسل إلى بائع الكتاب ثمنه من هذه الطوابع ، فإنها خفية خفيفة بخلاف ما إذا أرسل إليه ثلاثة شلينات مثلاً ، فإنها تثقل حجم الرسالة ، ولا يخفي أمرها .

وإذا بعث أحد بمكتوب ، فلم يجد البريد صاحبها بحث عن المرسل والمرسل إليه ، فإن تعذرت معرفة هذا رده إلى المرسل ، وإلا أبقى في البوسطة مدة معلومة ثم يُحرق . وإذا شئت أن تبعث بكواغذ<sup>(208)</sup> مالية أخبرت صاحب البوسطة بذلك ، فيجعل على ظرف الكتاب طابعاً آخر إنذاراً للبريد من أن يطمع فيه فيفتحه . وهناك طريقة أخرى وهو أن ترسل هذه الكواغذ أنصافاً ، أعني أن تقطعها أنصافاً وترسل في أول مرة نصفاً ، فإذا جاءك علم وصوله أرسلت النصف الآخر ، فيلصقهما المبعوث إليه بالأخرى ، وينتفع بهما . وإذا اشتريت من تاجر ما قيمته نصف شلين فقط ، وناولته كاغذاً بخمس ليرات ، صرفه لك فوراً ، وربما تزيد قيمتها في باريس وغيرها على قيمة الذهب ، وذلك يدل على ما لبنك الإنكليز من المتانة والمكانة .

## نقودهم ومعاملاتهم

وتقليل أنواع النقود أي كون النقود تقتصر على ثلاثة أنواع ، أو أربعة من الأسباب الميسرة للمعاملة ، بيان ذلك أن للإنكليز قطعة من الفضة تعرف بالشلين ، ثم أخرى قيمتها شلینان ، وأخرى قيمتها شلینان ونصف ، ثم نصف الشلین ، ثم ربهه ، ثم

(208) الكواغذ : جمع كاغذ بفتح العين ، ويقال الكاغذ بالبدال : القرطاس . (م) .



الليرة من الذهب ، ثم نصفها . فلو كان عندهم قطعة تساوي مثلاً شيلناً إلا قرشاً ، أو قرشين ونصف قرش ، أو سدس الليرة ، أو سبعة ، أو ثمنها ، حصل التغابن ، أو التوقف في الأخذ والعطاء ، فيا ليت ذلك كان جارياً في البلاد المشرقية . وكذلك من ميسرات المعاملة كون نقود البلاد الأجنبية لا يتعامل بها في البيع والشراء في لندرة ، وإنما يمكن صرفها عند بعض الصيارفة ، ولا تغير لأسعار نقودهم قطعاً كما يقع في بعض البلاد ، كما لا تغير لأسعار البياعات ، فإنك إذا أردت أن تشتري شيئاً من عند تاجر لم تجر العادة باستحطاطه من الثمن ، ولا سيماً إذا كان المبلغ زهيداً ، وبذلك يحصل راحة للبائع والشاري ونعمت العادة .

### عدم التعنت على النساء

ومن ذلك عدم التعنت على النساء فيما لا يكون به مثلبة للعرض ، فإذا كان الرجل مثلاً غائباً ، وجاء منزله فوجد رجلاً يحادث زوجته لا يتناولها بالهراوة ، أو القذع ويقول لها يا فاجرة يا عاهرة لا يجمعني وإياك مكان من قبل أن يعلم سبب زيارة الرجل ، فأماً إذا عرف منها الخيانة فلا رحمة بعدها ولا إعدار ، وإنما هما خطتان : إماً سكّين وإماً سُم . وكثيراً ما سمعت زوجة الرجل تقول للضيف بحضرة زوجها خذ يا عزيزي ، وهات يا عزيزي .

### شيوع الأمن

ومن ذلك الأمن في الخروج ليلاً من دون فانوس ، ولا باب يقفل على الساري ، والأمن للمسافر أيضاً في البلاد ، فإن الإنسان ليسافر فيها ليلاً ، وهو في أمن حال ، وأصفى بال ثماً لو سافر في بلادنا نهاراً . وترى الولد يمشي في المدن الكبار وحده ليلاً ، ولا يخشى شيئاً . ولا هيبة لذوي المراتب والمناصب منهم ، أو للعسكر والشرطة عند المارين بهم . وإن البنت التي لم تبلغ عشر سنين لتسعى بعد نصف الليل ، وتمرّ بالشرطة فكأنها مرت على بعض أقاربها فتسألهم ويجاوبونها ، وتسترشدهم بغير



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

أنصفت في الطلب ، ولكن أمهلني ريثما أقضي وطراً لي ، فيربطه بهذا الوعد ، ثم تمضي مدة والرجل راكن إلى وعده ، فإذا سأله مرة أخرى مَطَّله بحيلة أخرى ، إلى أن يقول له أخيراً : قد استخدمت غيرك ، أو قد استغنيت عنك .

إلا أن الإنكليز غالباً قد فرعوا من هذا الأصل فروعاً لا تناسبه منها : أنهم يعاشرون من يكون له عنده مصلحة شهوراً وسنين ، فإذا انقطعت أسباب المصلحة انقطعت العشرة ، وإذا اشتريت من أحدهم بما قيمته ألف ليرة مثلاً دفعة واحدة ، فإذا رآك في غير حانوته لم يلتفت إليك ، فلا يعرفك إلا في الدكان .

### عودة إلى حميد خصالهم

ومن ذلك ، أي من الخصال المحمودة ، الحرص على ما يؤتمنون عليه ، فإذا سلّمت لأحدهم مثلاً طرساً<sup>(211)</sup> فإنه يصونه عنده بمنزلة طرس نفسه ، حتى إذا استرجعته بعد سنين أعاده عليك كما تسمّله ، بل ربّما أزال عنه الوسخ وردّه إليك نظيفاً ، وقال لك : وهو معتذر قد تجاسرت على أن أزلت الطبع عن الطرس ، وأرجو أنني لم أسيئ فيما فعلت ، وقس على هذا سائر ما تأتمنهم عليه . وينضمّ إلى ذلك احترامهم للرسائل ، فلا يفتح أحدهم كتاباً جاءه باسم غيره ، بل يبذل جهده في إيصاله إليه ، وإذا زارك منهم زائر ، فلا يمدّ يده ولا طرفه إلى ما بين يديك من الصحف ، فإذا أراد أن ينظر في كتاب لم يلمسه إلا بعد أن يستأذنك . وفي بلادنا إذا أقرت أحداً كتاباً أعاره هو إلى آخر ، والآخر إلى آخر وهلم جراً ، فربّما لم يُعد إليك منه عين ولا أثر ، بل يرى نفسه أولى به ، وإن لم يستفد منه إمّا لعدم قدرته على فهمه أو لكثرة أشغاله ، بل القسيسون أيضاً لا يتورّعون من هذا . وإذا شرفك بزيارته فأول ما يطمح نظر فإنما هو إلى أوراقك ، وحالاً يمدّ يده ، ويخطف منها ما شاء ، فكأنما هو جاسوس جاءك ليطلع على أسرارك لا ليأنس بحديثك .

ومن ذلك أن أصحاب المراتب عندهم لا يقبلون المصانعة والرشوة من أحد لتحويل

(211) الطرس : الصحيفة . (م) .

أربه ، وإن عُلِمَ أنه ارتكب ذلك اقتصرَ منه كما يُقتصرُ من السارق ، ولم ينفعه أن يؤدي الرشوة التي أخذها مضاعفة . نعم إن المراتب هنا إنما تُعطى غالباً بالمحاباة والاستحباب لا بالاستحقاق والاستيجاب ، فإنَّ الأمير إذا نوّه بشخص من أقاربه ، أو معارفه عند ذي مرتبة وسيادة ، نفذت كلمته عنده ، ولو أنَّ شخصاً متّصفاً بأحسن الأخلاق ومتحلياً بالعلم والفضل حاول بنفسه أن ينال تلك المرتبة لم يلتفت إليه ، إلا أنَّ هذا الداء عام في جميع الممالك .

ويلحق بما تقدّم من تفضيل الاستحباب على الاستيجاب أنَّ النفر من العسكر لا يمكن أن يرتقي إلى مرتبة ضابط ، وإن ارتقى ألف حصن للعدو ، وأبدى من الشجاعة والبراعة ما يقصّر عنه قائد الجيش ، فهو نفر من يوم اكتتابه إلى يوم خروجه من الخدمة والحياة ، وبعد أن يقضي خمساً وعشرين سنة في الخدمة يُعفى منها ، ويعيّن له نحو أربعة قروش في اليوم . والأمير أمير من يوم ينزل من ظهر أبيه إلى يوم يركب ظهر النعش ، ثم يدوم ذكره كذلك إلى أبد الأبدان ، فكأنَّ ترتيب أصناف الناس عندهم بمنزلة ترتيب أعضاء الجسد ، بمعنى أن لكلِّ عضو خاصيّة ووظيفة لا يتعدّاه ولا تتعدّاه ، فالرأس لا يزال رأساً وإن سرى فيه الخرف والفند<sup>(212)</sup> ، والعور ، والصمم والدرد<sup>(213)</sup> ، والقدم لا تزال قدماً وإن هي أنجته ، وأنجت الجسم كله .

وهذا التخصيص من وجه آخر سديد رشيد ، فإنَّ ناظر الأمور الخارجية عندهم مثلاً ليس له حقّ في أن يدمق<sup>(214)</sup> على ناظر الأمور الداخلية في شيء ، وناظر مجلس المشورة ليس له جدارة بأن يحكم على أحد الباعة بشيء من محراب صرحه . وقس على ذلك ، فأما في بلادنا حرسها الله فإنَّ ناظر المدايع جدير بأن ينظر في جلود بني آدم ، ويصبغها بلون الدرّة والسوط ، أو يسبر ما هي عليه من الطراوة والنعومة . والمحتسب خليق بأن يزن أعمال عباد الله وأموالهم في بيوتهم ويروز ما في عباب صدورهم من الخواطر والأفكار ، وللحاكم ، أو للمطران أن يسقط حقّ المحق

(212) الفند : ضعف الرأي - الهرم . (م) .

(213) الدرد : سقوط الأسنان . (م) .

(214) يدمق : يدخل بغتة دون إذن . (م) .



لحرف أسقطه في الكلام ، وللضابط أن يبيت الناس في مضاجعهم ، وللشرطي أن يقبض على أي شخص كان ، وللضابط العسكر أن يخترط سيفه على أي عنق سنحت له ، وللبطرك أن يحرم أي شخص كان من رعيته ، حتى لا يعود لأحد من أقاربه وأهل بيته استطاعة على مخاطبته ومبايعته ، وإلى من المشتكى وأبن النصير ، وأبن المجير؟ فيا ليت شعري متى نصير نحن ولد آدم بشراً كهؤلاء البشر ، ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا؟ أ نخال أن معنى التمدن هو أن يكون الناس في مدينة وفيها ذئاب وسباع ، كلا ، ثم كلاً جبر أن اجتماع الذئب والخروف في مرعى واحد ليجب على اليهود أن يؤمنوا بأن المسيح قد جاء .

ومن ذلك تنشيط أولادهم إلى الأشغال وتمرينهم على ما يكسبهم وإيأهم الرزق الكافي والمواظبة على الأعمال ، والصبر على ما يتعاطونه جلّ أو حقر ، فإنهم لا يملون من السعي ، ولا يرون في الكسل راحة ، ولا يقول أحدهم : إني كبرت عن تعلم شيء ، فلا يزالون دائبين كالنمل ما دامت فيهم نسمة تحرك ، ومع كل هذا التجلّد والتحمل فمتى ضيم أحدهم ، أو سقط شرفه أو مال نجمه ، فأهون شيء عليه نحر عنقه . وذلك عندي من جملة الأفعال المتناقضة في الطبع البشري ، وجلّ سعيهم في شبابهم إنما هو لتحصيل ما يهنئهم في شيخوختهم حتى يمكن لهم تربية أولادهم ، فلا يحتاجون إلى التكفّف ، أو إلى ملازمة المستشفيات والملاجئ المعدة للعاجزين ، وكلّ منهم يعمل بقول الشاعر :

قليل المال تصلحه فينمى

ولا يبقى الكثير على الفساد

فأما قول عروة بن أذينة :

لقد علمتُ وما الإسراف من خلقي

أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى له فيعنيني تطلبه

وإن أقمتُ أتاني لا يعنيني

فإنه يعدّ عندهم من الأمانى الفارغة الباعثة على التواني ، غير أن حب التناهي غلظ ، فإنّ تعليق العبد توفيقه ونجاحه بالكلية على سعيه وكده لا يخلو من ازدراء

بعناية المولى ، وفيه من وجه آخر تقسية للقلب ، فإن الإنسان والحالة هذه يهون عليه أن يفارق وطنه وسكنه لأجل المال . وهذا الداء فاش أيضاً عند المثرين والموسرين هنا ، إذ الغني منهم قد يكون له ابن وحيد ، فيبعثه إلى الهند أو غيرها طلباً لوظيفة سامية ، وربّما فُجع به بعد قليل ، وهذا يعدّ من وجه أنه ناشئ عن كِبَرِ همة وسمو مطمح ، ومن وجه لك أن تعدّه من الحرص والطمع ، فوقّ بينهما إن استطعت .

ويلحق بذلك أن الشيخ الفاني منهم إذا أراد مثلاً أن يبني بيتاً ، أو يأتي أمراً فإنّما يجعل همّه في تحصيل المنفعة منه في المستقبل أكثر من الحاضر ، وفي غير البلاد لا يبالي إلا بمنفعة الحال ، ولا يكاد يتّجه أمر يرجي منه نفع وصلاح إلا وتجرّدت له جماعة ، فتجريه على وجه مرغوب ونحو مطلوب . وكلّما اخترع أحد شيئاً قصد به غالباً إحدى هؤلاء الجماعات إيثاراً لهم على أهل بلاده ، لعلمه بأنهم يعرفون أجرة العامل ؛ فيعينونه على إجراء مرامه بما فيه نفع له ولهم .

ثم إنّه وإن يكن قد غرس في طبع كلِّ إنسان أن يحب وطنه ، ويفضله على غيره ، ولا سيّما إذا سافر إلى بلد هو دون بلده في طيب الهواء ، ورغد العيش ، وحسن الأحكام إلا أنّ هذه الخلة تكاد أن تكون من خصوصيات الإنكليز ؛ فإنّهم إيان يتغرّبوا يظنّوا لهجين بذكر بلادهم ، وما فيها من المحاسن واللذات . وقد رأيت كثيراً ممن سافروا منهم إلى بلادنا ، وإلى مصر والغرب ، وباريس ، وغيرها ، فأثنوا على تلك البلاد بشيء وافق طباعهم منها إلا أنّهم عند ختم الكلام يقولون : لا شيء مثل إنكلترا القديمة ، وإنّما يصفونها بالقدم لعدم تحوّل أحوالها وتغيّر عاداتها ، كما أن أهل باريس يقولون : ليس إلا باريس .

ومع ذلك فإنّك لا تزال ترى الإنكليز طوّافين في جميع البلاد ، وراكبين متني البحر والبر معاً ، ولكن لا تكاد ترى أحداً منهم يسافر إلى البلاد الأجنبية لأجل أن يعلم التصوير ، أو الرقص والغناء ، كعادة غيرهم من الإفرنج ، وإنّما هو للتجارة . أمّا الأمراء والأغنياء فإنّهم يسافرون للتنزّه ، وأحياناً لأجل تخفيف المصاريف ، فإنّهم مهما يصرفوا في غير بلادهم فلن يبلغ ذلك نصف ما يصرفونه وهم في أوطانهم . وبّ وليمة عندهم ينفق فيها نحو مائتي ليرة ، فتري منهم في كلِّ قصبة من بلاد أوروبا ألوفاً ، ومتى رجع الإنكليزي إلى بلاده أنشد مع الشاعر :



فبشَّرتُ أمالي بملكٍ هو الوري  
ودارٍ هي الدنيــــــــــــــــا ويومٍ هو الدهرُ  
ولا شيء يعجبهم مثل أن تمدح بلادهم وعاداتهم .

### من طبع الإنكليز



هذا وإن من طبع الناس عموماً إذا احتاجوا إليك أن يُعزُّوك ، ويحتفوا بك ويروك أهلاً لكلِّ مكرمة ، وإذا أنت احتجت إليهم استخفُّوك ورأوا فيك العجز والذل ، إلا أن هذه الخصلة غالبية على الإنكليز جملة وتفصيلاً ، فمن رام أن يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم أنه مستغن عنهم ، ولا يعرض لهم في طلب شيء ولا في استعارته ، وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون أياماً وشهوراً وسنين ، ولا يسألونه عن مقدار دخله وخرجه ، ولا يريدون أن يسمعوا ذلك منه إذا ذكره . ومتى حلت هذه العقدة انقطع الحبل ، فذلك عندهم من السر الذي لا ينبغي إفشاؤه إلا عند الضرورة المقتضية له ، وكذلك لا يسألونه عن معتقده ومذهبه . وعندنا من تعرّف أحد بذي مقام فأول ما يشنّف سمعه به من المسائل قوله له : من أي ملة أنت؟ فإذا لم يكن المسؤول على ملة السائل سقط من عينه الشريفة ، أو بقي فيها كالقذى إن بقي محتاجاً إلى عشرته ، فأما مسائل الإخوان والعشراء ، فأولها كم دخلك؟ وثانيها كم خرجك؟ وثالثها كم مرّة تعترف في السنة؟ ورابعها هل تأكل البيض يومي الأربعاء والجمعة؟ إلى آخره .

ومن طبع الإنكليز أنه متى وثق أحدهم بإنسان ، وعرف منه الجِدَّ والاستقامة والأمانة يَأتمنه على زوجته وبناته فيذهب معه ليلاً ونهاراً بلا مانع ، ومن يحضر إلى بلادهم بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدُّوه منهم ، وصمُّوا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يُقال فيه من الذم ، ولكن بشرط المحافظة على ذلك الأصل ، وهو إظهار التشبُّع والاستغناء ، فأما إذا كان ذا بسطة في الجسم ومسحة جمال في الوجه فلا يعود يشينه شائن ولا يزحزحه قاذح وطاعن ، ومتى دخل تحت حماية أمير منهم فقد دخل في ذمّة السموءل ، وفي حمى كليب فهو يحامي عنه بكل ما أطاق ، فهذا



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

## الفرق بين عامتهم وخاصتهم

ومن طبع الخاصة منهم أن يتجنبوا معاشرة العامة ما أمكن ، ولذلك سببان : أحدهما ، وهو المشهور عند الناس عظم الفرق الحاصل بين الفريقين في الأطوار ، والأخلاق ، فإن العامة في هذه البلاد ليس لهم حظ من الكياسة كما عرفت مما مر بك ، ولا تكاد خلأثقتهم وعاداتهم ترضي أحداً من البشر ممن كان ذا ذوق سليم وطبع مستقيم ، فالأوباشية ظاهرة عليهم في كلامهم ، وحركاتهم ، وتخيرهم للألوان ، وفي تصرفهم وغنائمهم وضحكهم . ومعلوم أنه من يكون قد قرأ ودرى يستنكف من مخالطة أمثال هؤلاء ، والسبب الثاني ، وهو ما خطر لي أن أصل عليّة الناس هنا من أجيال مختلفة ، فإنّ الذين فتحوا هذه الجزيرة كانوا من فرنسا ، وشمالى أوربا ، ومعلوم أن هؤلاء الفاتحين هم الذين استولوا على أرض الجزيرة ، وعلى المراتب والألقاب الشريفة ، وأن الإنكليز القح بقوا بينهم مسؤدين مرؤوسين ، فبقي هذا الفرق في أعقابهم .

## نبذة عن ملوكهم

قال فلتير : إنّه بعد وفاة ألفريد ملك إنكلترا وذلك سنة 900 اختلت أمور المملكة وتضعفت أركانها فكان القتال مستمراً بين الصكسونيين ، وهم أول من غزوا الجزيرة ، وبين الدانيزيين ، ولما كان هؤلاء أعز وأقوى من الإنكليز لم يكن لهم بدّ من أن يؤدّوا إليهم 48,000 ليرة لينصرفوا عنهم ، وذلك في حدود الألف . قال : ثمّ إنّ كانت ملك الدانيمرك جار في حكمه على الإنكليز ، وبغى وطغى ، وفي سنة 1017 أعناهم تحت حكمه ، وعاملهم معاملة الأسرى ، فكان الدانيزي إذا أمر بالإنكليزي يلجئه إلى الوقوف إلى أن يمر .

فلما انقرضت ذرية المذكور عادت إلى إنكلترا حريرتهم ، فملكوا عليهم إدوارد الصكسوني ، وكان يُلقب بالقدّيس المعترف ، وإنما قيل له ذلك لأنه اعتزل زوجته عن كراهة لها ، ومات ولم يعقب ، وعند وفاته قام الأمير وليم دوك نورماندي يدّعي بأن له

حقّ الولاية عليهم مع أنه لم يكن له حقّ بولاية النورماندي إلا أن حقوق الولاية والملك حينئذ لم تكن في أوربا كما هي الآن .

وكان من جملة دعواه أنه قال : إنني لما سافرت إلى جزيرة إنكلترا اجتمعت بالملك إدوارد فجعلني ولي عهده ، وإنني أنقذت الملك هرلد من سجنه ، فوعدني أيضاً بنقل الملك إليّ . ولما عرض ما نواه على أهل النورماندي وقع بينهم الخلاف في شأنه ، فممنهم من أبى أن يساعده ، ومنهم من رأى في ذلك مصلحة ، ومن جملة هؤلاء الدوك فتزاسبورن فإنه جهز معه أربعين سفينة ، وأمدّه أيضاً حموه الكونت فلاندر بمال ، وكذلك البابا أعانه ، وحرّم كل من يمانعه ؛ فسافر حتى بلغ ساحل صاسكيس ، فلقيه هرلد ملك الإنكليز بالجيش ، ونشبت الحرب بين الفريقين فقتل هرلد وأخواه ، وانهزمت الإنكليز أمام وليم ، فزحف بالجيش نحو لندرة وهو ناشر علماً كان قد باركه له البابا ؛ فدخلت الأساقفة في طاعته ، وأقبلت إليه القضاة بالتاج . فلماً استوى على سرير الملك أذلّ الدانيزيين وأهل الجزيرة وقهرهم أيّ قهر ، وأحسن إلى أهل النورماندي الذين أعانوه ، وأجرى عليهم أرزاقاً ، وأقطعهم إقطاعات جمّة فمن ثم كثرت هناك عيال النورماندين الذين لم تزل أسماء ذرايرهم معروفة بين الإنكليز . قال وكان دخل هذا الملك أربعمئة ألف ليرة ، وهي تبلغ بحساب قيمة الدراهم في زماننا هذا خمسة ملايين من ليرات الإنكليز .

قال : ثم إن الملك المشار إليه أبطل ما كان عند الإنكليز من الأحكام والشرائع ، وأقام شريعة النورماندين مقامها وأجبر أهل الدعاوى على أن يتداعوا بلغة قومه ، وكذا كتب الصكوك والأحكام فبقيت لغته مستعملة إلى عهد إدوارد الثالث . وكانت تلك اللغة فرنساوية مختلطة بالدانيزية بعيدة عن الفصاحة بئسنة عن البيان ، وكان ممّا سنّه الملك على الإ ، كليز إطفاء مصابيحهم في الساعة الثامنة من الليل ، وذلك عند سماعهم صوت الجرس ، إلا أن هذه العادة كانت جارية أيضاً عند غيرهم من سكان البلاد الشمالية وكان البادئ بها أهل الكنيسة . انتهى .

فقد علمت ممّا تقدّم أنّ عليه الإنكليز هم من الغرباء الذين فتحوا هذه البلاد ، فإن قلت : إذا كان الأمر كذلك فما بالهم يخالفون عليّة فرنسا والدانيمرك في الطباع ، وفي كونهم كما سبقت الإشارة إليه كالزيت لا يختلطون بغيرهم أنفة وتكبراً؟ قلت :



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

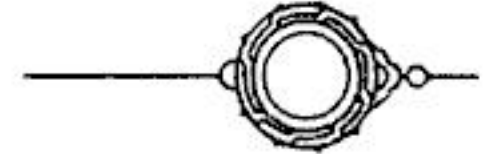


أغناه ذلك عن حلس الجاء . ولا شك أن الفضل بغير جلاء خير من الجلاء بغير فضل .

وقد كنت ترجمت نبذة من لغتنا وبعض محاوره لأجل أن يطبعها بعض الوراقين بلندرة ، فلما انتهى طبعها كتب في صفحة العنوان أنها من تأليف فلان مدرس اللغة العربية بالمطة سابقاً ، ومترجم جميع أسفار التوراة والإنجيل ، ومؤلف كتاب الفاريق إلى آخره . فقلت له ما الموجب إلى ذلك كله فقال : إن الإنسان هنا إنما يعتبر بألقابه لا بأفعابه ، وخلوا من تعدد الألقاب لا يباع كتاب .

ولكل عيلة شريفة من هؤلاء الرؤوس لباس مخصوص لخدمتهم وخدمتهم ، ولهم أيضاً لهجة مخصوصة فيه لجلجة في الكلام ، أو كما يقال رخاوة حنك ، حتى إن اللاعبين في الملاهي يحاكونهم بها ويسخرون منهم ، ولهم أيضاً تنطس زائد في مراعاة جانب العرض ، فإنهم لا يقبلون في مجالسهم من علم أنه عائش مع امرأة على وجه المتعة أو السفاح . وعند الفرنسيين لا حرج فيه ، وكذلك لهم تشدد في الصدق ، فإنهم إذا عرفوا من أحد الكذب ولو مرة واحدة سقطت اعتباره من أعينهم ، ومع ذلك فهم أكثر الناس عرضة للتدجيل والخداع .

## معاشرة عليّة الإنكليز لأزواجهم



ومنها أن معاشرتهم لأزواجهم أشبه بمعاشرة الأجانب ، فلا يأنس أحد بشيء من الدالة بينهما . فبينهما من التحشم والتكلف ما بين الغريب وأحدهما ولا يقول السائد عن امرأته زوجتي قالت ، أو قرينتي ، بل يقول : قالت الست . ولا يفتح رسائلها التي ترد باسمها ولا يتطال إلى معرفة أحوالها . وإذا أتاها زائر رجلاً كان أو امرأة جلس معها من دون حضور زوجها ، وإذا كانت في حجرتها لم يدخل عليها إلا بعد أن يقرع الباب ، ومتى أرادت الخروج فلا تستأذنه ، وإنما تشعره به إشعاراً ، ولها أن تستخدم من شاءت ، وأن تذهب إلي الملاهي مع معارفها سواء كان زوجها صحيحاً أو عليلاً في الفراش . وإذا زارهم أحد من معارفهم أو أصحابهم يأتونهم على بناتهم ونسائهم فيخرج معهن ليلاً ونهاراً ، والغالب أن يكون خرجهما أولاً إلى الكنيسة





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



## زيارة العلية وشروطها

وينبغي لمن أكرمه الله عز وجل بزيارة أحد هؤلاء الأمجاد والماجدات ألا يذهب إلا في وقت الزيارة المعلوم وهو بعد الضحى ، وأن يكون مجملاً باللباس الفاخر ، نظيف الثياب حالقاً شاربيه مُرجلاً شعر رأسه بارداً أظافيره ، ماسحاً نعليه ، ساتراً كفيه بجلد أبيض . فإن قولنا : المرء بأصغريه ، ولا تكلمك العباءة وإنما يكلمك صاحبها ، ورُبَّ حرّ ثوبه خلق ، لا محل له من الإعراب عندهم . وينبغي أيضاً أن لا يحدق فيما يراه من المتاع والأثاث ولا يمسه بإصبعه فإن كل ما يكون بالمجلس حرم ، ولا يبتدر الرجل بالخطاب ، ولا يكن سائلاً فإذا كلمه مولى الدار ثلاث كلمات أجاب بثلاث ، وإن زاد فليزد ، ولا يلزّه في الجلوس ، وإن مسّ كوعه فصلاة الاستغفار ، ويندب المشي على البساط قوراً<sup>(215)</sup> . ومن العيب أن يذكر الإنسان بحضرتهم اسم رجله أو ساقه أو ظهره ، وأقبح من كل قبيح أن يقول : بطني ، حتى إن لفظة البطن بلغتهم مستهجنة ، ومثله الفخذ حتى من الحيوان ، وفي بعض البلاد قد تقول المرأة إذا دعوتها للأكل بطني ملآن ولا تستحي . ولا يُحكّ بحضرتهم موضعاً من جسمه ، ويفرض أن لا يبصق ، ولا يسعل ، ولا يمخط ، ولا يفنخر ، ولا يتجشأ والعياذ بالله ويندب أن لا يتنحج ، ويجب أن لا يشم منه رائحة الدخان ، وأعرف سيّدة كانت إذا شمّت رائحته في ثياب زوجها سواء كان منه أو من غيره أجبرته على نزعها .

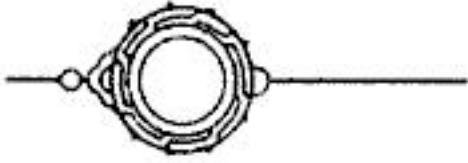
وقد كان دعاني بعضهم إلى أن أزوره ، وأمكث عنده أياماً ليسمع مني لفظ العربية ، وقال لي : قد جئتك من مكان سحيق قصد أن تنزل عندي ولك علي كل ما يرضيك .

فقلت له لكن ينبغي أن تعلم أنني أتعاطى الدخان ، وأن نساء الإنكليز لا يسمحن به .

فقال : إن حول الدار بستاناً ، فمتى أردت أن تدخن تمضي إليه .  
فقلت في نفسي : هذا أول المباحث على العنت .

(215) في الطبعة الأولى : ويستحب المشي على بساطه قدراً . (م) .

ثم قلت له : إذا طلبته في الليل فهل أقوم من الفراش وأحمل اللحاف إلى البستان؟ قال بل تدخن في حجرتك .  
فأجبتة إلى ذلك وسافرنا معاً ، فلما بلغنا منزله سلّمت على زوجته ، فكان أول ما خاطبتني به أن قالت : طب نفساً من جهة تعاطي الدخان ، فإننا ننظف الحجرة منه كل يوم ، فاستدللت من ذلك أنه كتب لها قبل سفرنا في هذا الأمر الجليل .  
وإذا زارهم أحد أول مرة ولم يكن من معارفهم فلا بدّ أن يعطي الحاجب تذكرة مكتوبة باسمه فيناولها الخادم سيّده في صحيفة من الفضة أو البلّور ، ولا يكاد يدخل عليهم زائران في وقت واحد ، وقد يكون عند البواب دفتر يكتب فيه أسماء الزائرين في كل يوم . وفي الجملة فإنّ معاشره هؤلاء الرؤوس تتعب الرأس والرجل معاً وتضيع كثيراً من الوقت والمال ، وربما دعاك أحدهم إلى غداء فقام عليك ذلك الغداء ثمن عشرة أغدية .



### مما يحمد نبلائهم

ومما يحمد من هؤلاء النبلاء أنهم لا يضعون في أرديتهم سمات الشرف ، ويطوفون به ي الطرق تهويلاً على العامة كما تفعل نبلاء فرنسا ، وإنما يتحلون بها في أوقات معلومة ، وكذلك الخواتين لا يتحلين بالحلي والجواهر إلا في الولائم والسهريات ونحو ذلك . ومن ذلك خطابهم خدّمتهم بالرفق واللين ، وإن أظهروا عليهم العجرفة والعنجهية فالخدومة تقول لخادمتها إذا أمرتها بأن تناولها شيئاً هاتي هذا الشيء إن أعجبك ، وبعد أن تأخذه منها تشكرها ، وربما تباخلت عليها في الأكل والشرب ، وأرضتها بمثل هذا الكلام الطيب فيطيب خاطرها ، ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال الخدومة متباعدة عن الخادمة ومظهرة لها فرق المقامين وتباين الشائين فلا تدل عليها بشيء ، وإذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الأدب ، كأن تقول لها مثلاً يا فاجرة يا بنت الكلب كما تقول نساء بلادنا عند أدنى باعث ، أو أن تحرق عليها أسنانها . والعادة عندنا بخلاف ذلك فإن الخدومة تلعن الخادمة وتشحنها بحضرة الناس ، ثم تلقمها وتعلقها وتنسب معها في الكلام ،

وتستعين بها على تنفيذ هواها وتطلعها على أسرارها . ويحمد أيضاً من عاداتهم أنهم إذا استخدموا شخصاً لسنة وأرادوا صرفه لغير ذنب نبهوه من قبل صرفه بثلاثة أشهر ، وعند الفرنسيين ينبهونه من قبل بثمانية أيام كذا في غالنياني ، فأما إذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه بأسبوع أو أدوا إليه أجرة الشهر وصرفوه ، ومن يستخدم في الميري أو عند جمعية وأبلى في خدمته كان على ثلج من أن يزاحمه آخر على محله ولو بأجرة أقل ، وكل هذه المحامد معدومة في بلادنا ، فإنَّ المخدم يطرد خادمه بلا ذنب ولا مكافأة .

### من غريب طباعهم

ولبعض كبراء الإنكليز طبع غريب لا أدري إلى أي شيء أنسبه وهو أنه إذا باشر لهم أحد عملاً لم يخطر بباله أن خدمته له إنما هي عن حاجة ألباتة إلى إخالق ديباجته ، فيأتي عليه حين من الدهر من غير أن يسأله : هل أنت محتاج إلى الدراهم ، أو لا ، ولكن اسمح لي أيها المخدم الأعزّ الأغرّ أن أترجم لك عن هذا الطلياني الذي يعلمك الأحسان ، وعن ذلك الفرنسي الذي يعلمك الرقص والتصوير ، وعن ذلك النمساوي الذي يعلمك فلسفة اللغات ، فإنني أخشى أن الأول يضيف إلى كلّ كلمة من لغتك حرف علة ، والثاني ينقص منها الحرف الصحيح ، والثالث يبدل ويقلب ، فإنه يرى أن لغتك فرع من لغته فلا يبالي كيف يؤدي إليك المعنى ، فيشكل عليك فهمه ، بل دعني أكلمك بلسان عربي مبين حتى يكون كتاب كلّ من نفس واحد ، وما على صماحك اللطيف الشريف من حروفه الحلقيّة من بأس ، فأقول : أيّ لذة ترى لمعلمك منهم في مجيئه إليك تحت المطر والثلج من مسافة ساعة فأكثر فيحوج إلى أداء شلين جعل الحافلة ، وإلى أن يضغظ بين القاعدين فيه ، ثم بعد أن يخرج منه سالماً يمشي ربع ساعة فيوسخ الوحل نعليه ، وتكسر الريح ظلّته ، ثم يأتي فيقرع الباب فيخرج خادمك إليه ، وينظر إليه كالمستخفّ به إذ يرى نعله قد ابتلت ، وظلّته مفتوحة ، فإنه قد نقل عنك بالإسناد أن كلّ من يعيش بيديه ، ويمشي على رجليه لا يكون جنّتل مان أي متخصصاً متصفاً بصفات الخاصّة ، ثم يعرض



عليك ما أقدم الآتي إليك من دون أن يذكر اسمه ، وإنما يذكر صفاته بأن يقول بالباب رجل مبتلّ النعلين مفتوح الظلّة مشعث الرأس ، وحينئذ تأمره بأن يأذن له في الدخول ، فأمعن النظر هداك الله يتبين لك أن من كانت هذه حالته كان جديراً بأن يأخذ في غاية الشهر أجرته وحقّ عرق جبينه ، أو قرقرة أمعائه من البرد . لعمري ليس هذا دأب جيرتك الفرنسيين فإنهم وإن لم يؤدّوا أجره العامل لهم كما تؤدّيها أنت إلا أنهم لا يغفلون عنه ، فيعرضون عليه ما يلزمه قبل اللزوم ، أو عند وقته ، وأقبح من ذلك أنه إذا سأل العامل المعمول له من هؤلاء السادة أجرته انقبض منه واقشعر ، ولا سيّما إذا كان المبلغ قليلاً .

وهنا ينبغي أن أذكر أن الناس ما زالوا يروون عن الإنكليز أنهم إذا استخدموا مثلاً معلماً أو غيره لا يسألونه عن أجرته أولاً وإنما يسألونه أخيراً ، ويؤدّونها إليه كما يطلب ، وأنهم يوفونها أكثر من سائر من عداهم من الإفرنج ، وأن العامل إذا اشتغل لهم بشيء ساعة ما من النهار أغناه ذلك عن التعب يوماً أو يومين ، فينبغي أن تعلم أن الإنكليز كانوا من قبل اختراع البواخر أنخى وأسخى منهم الآن ؛ فإن مجيء الغرباء إلى بلادهم كان إذ ذاك نادراً . فكانوا يحتاجون إلى أن يأخذوا عنهم ما ليس عندهم منه .

وكثير من قدم إليهم في ذلك الوقت مخرق عليهم ولبس ، ورجع غانماً ، فأما الآن فما برحت الغرباء تتوارد إليهم من كل فجّ وصاروا هم أيضاً يجولون في جميع البلاد ويطلعون على أحوالها ويشهرون معلوماتهم فيها في الكتب ، وفي صحف الأخبار ، فصاروا لا يخفى عنهم ما يناله الغريب في بلاده ، وأصبحوا يشاطرون ويستحطّون من الطلب ، وصار عندهم كثيرون من الغرباء . فربما رضي أحدهم بأن يأخذ على شغل ساعة شليناً واحداً وما بين ذهابه وإيابه يضيع ساعة فأكثر .

وهذا الطمع في الاستغناء من الإنكليز قد غرّ كثيراً من الناس فاستفزّهم من ديارهم حتى قاسوا في هذه البلاد من الجهد والعناء ما رضوا به من الغنيمة بالإياب ، حتى إن أهل إرلانند مع قربهم من الإنكليز ومخالطتهم لهم يتركون بلادهم ويقصدون إحدى مدن الإنكليز ، وعمدتهم تلك الأمانى الفارغة . ويحكى عن أحدهم أنه قدم إلى لندرة على نية أن يصيب فيها الحظوة والسعادة وكان فقيراً جداً ، فاتفق يوم دخوله



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

لا يُعني عند الفرنسيين نقيراً .

## اتصافهم بالكبر والعجرفة

هذا وإنني سمعت من كل من عاشرته وقد عاشر الإنكليز أن يصفهم بالكبر والعجرفة ، ولكن قبل إثبات هذه الدعوة ينبغي أن تعلم أن الكبر على أنواع : الأول : أن يكون ظاهر سحنة الإنسان منفراً عنه ناظره لعدم طلاقة وجهه ، فيظن الناظر إليه أنه لا يتكلف لمخاطبته ، والثاني : عدم عدم قبول النصيح والافتئات<sup>(217)</sup> برأيه وقوله وإن علم أنه غير مصيب ، والثالث أن يكون طلق المحيّا ، لين الجانب ، يرغب في مجالسة الناس ، ولكن أول ما يُبسّط بساط الحديث بينك وبينه يطفق يعدد عليك فضائله ، وفواصله ، ومآثره ، ومناقبه ، فإذا كان مشرياً قال : «إني أنفق في الشهر كذا ، وأتصدّق على الفقراء بكذا ، وكنت بالأمس ماراً في طريق كذا فسألني فقير شيئاً ، وحيث لم يكن معي فلوس بذلت له ديناراً ، وإنني لا يبلى عندي شيء مما ألبسه ، فإنني أخلعه على هذا وذاك ، وإن عندي من المتاع كذا ، وكل يوم أكل كذا ، وأضيف أناساً وأقربهم الطرف التي يعزّ وجودها في هذه البلاد ، فإن لي عمالاً في البلاد الخارجية يبعثونها إليّ في كل عام» . أما الكتب فلم أعنى بها إذ لست أملك فرصة للمطالعة لكثرة الشواغل والموانع .

وإن كان جميلاً قال : إن فلانة هامت في هواي ، وتركت أهلها حباً بي ، وألت لتصحبني أو تموت ، وإن زوجة فلان أهدت إليّ من التحف كذا ، وأرسلت إليّ من الرسل والرسائل كذا ، وإن ابنة فلان دعنتني إلى أن أخطبها ، وهي تملك كذا ، لم أجبها ، ولا ادري كيف ينتهي الحال بها ، وإنني مشفق من أن يلم بها عارض من الجنون فأكون أنا سبب ذلك . وهو مع كل هذا الإفجاس والجُزاف<sup>(218)</sup> بكذا مقبل عليك وباش بك ، ويزيدك إدناءً من جنابه لكيلا يفوتك شيء من هذه الفوائد التي

(217) الفتئات بالرأي : الانفراد والاستبداد . (م) .

(218) الإفجاس : التفاخر ، والجُزاف : الشيء الذي لا يعرف كيله أو وزنه . (م) .

يلقيها عليك .

ومن كان قد قرأ بعض أشعار وسمع من أهل العلم مثلاً أن الشعر منقبة سنية  
تصدى إلى نظم أي كلام كان ، فإذا رأى طائراً في الجو نظم فيه قصيدة ، وإذا توفي  
أحد في بلده قال قد غاض بحر الكرم ، ودكّت أركان المعالي ، وذوت أزهار الفضائل ،  
وأفل نجم الهدى ، وخسيف بدر المجد ، وكسفت شمس الفضل ، ثم لا يزال يطلع في  
عاجلة النبي إلياس حتى يصل إلى الفلك الأثير ، ويعدد جميع ما هنالك من  
النجوم ، وينتزع منها كفنًا لمرثيه ، وما ذلك إلا حتى يُقال عنه : إنه شاعر .

ومنهم من إذا حفظ نادرة أو حكاية أو مسألة تراه يتشدق بها في كل مقام ،  
ويضغطها بين كل مورد ومصدر ، حتى يُقال عنه : ما شاء الله .

ومنهم من إذا أطلعت على غلظه أو ما إليك برأسه ، وقال : قد فهمت قد فهمت ؛  
فتقول له : كيف تكتب المرة الآتية؟

فيقول : لا أكتب غلطاً .

فتقول : ولكن بين لي كيف تجتنبه؟

فيقول : أكتب ما يكون صحيحاً .

فتقول أطلعني عليه .

فيقول : حين أكتب أعرف ما يُقال .

ولا يزال يحاولك بمثل هذا استكباراً وعناداً حتى تمل منه .

ومنهم من يزورك وأول ما يستقر به المكان يأخذ في أن يشكر من كثرة معارفه ،  
ويتأفف من كثرة ما يُدعى إلى ولائهم ومراقصهم ، ويتسخط على الولايم والمولين  
مع أنه لم يحصل على معرفة هؤلاء المعارف إلا بعد استعمال وسائل لا تحصى ، وهو  
يقول في قلبه : أدام الله دولة هذا المادب ، وأعلى شأن الأدبين ، فإنهم أنفع من الأدب  
والمتأدين ، وإنني أذهب إليهم ، وأنال من أطايب طعامهم وشرابهم ، وأمخرق عليهم ،  
فتارة يضحكون من خزعبيلاتي ، وتارة يحبذونني ، فأرجع إلى وكري خالي البال  
ممتلئ الأمعاء . ومنهم من يكون له قفص خدام ، فيدعوه إلى أن يجوربه ، ويلبسه نعله  
بحضرة الناس ، وأن يحمل دورقه ودواته وجبته وعصاه وقصبة دخانه ، ويمشي وراءه  
كأنما هو حمار موقور ، وذلك حتى يقول الناس : إن السيد ذو خدم وحشم .

ومنهم من يتواضع لجليسه وسامعه بأن يقول لا تؤاخذني يا سيدي بما تسمع مني من اللحن ، فإنني لم أأخذ النحو عن أحد ، ولم يطاوعني الوقت على أن أتعلّم اللغة كما يجب ، وإنما عرفتُ ما عرفتُ بالدربة والممارسة ، وهو عند ذلك ينتظر من سامعه أن يقول له : حاشا لك أن تلحن في شيء وأنت العلم المشار إليه بالعلم والبيان ، وأقسم إنه لم يطرق مسمعي شيء أبلغ من كلامك ، فأنت قسُ الفصاحة ، وسَحْبَانِ البلاغة ، وأنت الذي تُروى عنه نوابغ الكلم ، وتؤخذ عنه جوامع الحِكم ، فيا ليت لنا في بلادنا نقرأ يأخذون عنك هذه البدائع كيلا يضيع العلم من بيننا ، فأدام الله وجودك ومتعنا ببقائك السعيد أمين .

ومنهم من يقول : إن شأني يا جماعة الخير أن لا أرى عليّ لأحد ديناً أو لوماً ، أو منة . ولو بتُّ وعليّ لأحد دينار واحد لم تأخذني سنة ولا نوم ، وقد حاولت أن أغير طبعي هذا بطبع من طباع الناس فلم أقدر . وهو مع ذلك يترقّب جماعة الخير أن تقول له : نِعْمَ هذا الطبع ، لله سجايك ما أكرمها ، وخلاتك ما أعظمها ، فيا ليت الناس جميعاً يقتدون بك .

ومنهم من إذا كتبت إليه كتاباً تسأله عن شيء ضنّ عليك بجوابه إذ يراك غير أهل له .

ومنهم من إذا رآك قد فتحت فاك للحديث معه ، أو مع جلس آخر ابتدر إلى قطع حديثك المفيد بأن يحكي حكاية سخيصة عن نفسه ، أو عن أهله وخادمه . ومنهم من يماريك في الحق الصريح ولا يذعن لبرهانك ، وإن كان يعلم أنه دونك في الجدل ، وآخر الكلام بينك وبينه هو أن يقول لك : هكذا كان رأيي وهذا هو قصدي ، فيوهمك بذلك أنك كنت كنت من الزائغين ، وأنه من الراشدين ، وذلك حتى يكون آخر الكلام إليه .

ومنهم من يجادلك فيما لا يورثه فخراً ، ولا يكسبه ذكراً ، ولكن مجرد إظهاره إياك غالطاً ، فإذا سألك مثلاً كيف أنت؟ وقلت له : بخير وعافية ، قال لك : ما أراك تدري ما العافية؟ فإنني لا أرى أثرها عليك . فتقول له : كيف واني والحمد لله مُتملِّ بصحتي ، ويُمِرثني ما أكل وأشرب ، ويُهِنثني منامي وجلوسي . فيقول : ما هذا معنى العافية عند المحققين ، وإنما هي أن تمشي منتصباً غير لاوٍ على أحد ، أو شيء تراه عن



يمينك وشمالك موازنا لخطواتك ، شامخاً بأنفك ، مصعراً خدك . . إلى آخره . ولو جئته بجالينوس والفيروز آبادي ليطلعاه على حدّ العافية وتعريفها لم يقنع منك .  
ومنهم من إذا غاب يوماً عن وطنه قال لمن يجهل نسبه : إن أبي كان رئيس المنشئين في الديوان ، وعمّي كان وزير الأمير ، وخالي سميره ، وإني إنّما قدمت بلدكم للتّنزه والتفرّج وما أشبه ذلك ، ومنهم من إذا لم يجد مجالاً في نفسه للمدح والمباهاة افتخر بابيه ، أو جده أو عمّه أو بداره أو ببلدته ، وأعتقد أن كل شيء يضاف إلى ضميره يُعجب الناس . وقد سمعت مرة واحداً من هؤلاء المفتخرين يقول : قد جرحت إصبعي بالأمس ؛ فخرج منها دم أحمر قانٍ أعجب وعجب جميع الحاضرين .

ومنهم من يستفزه العطس والضحك إلى أن يغادر وطنه ؛ فيقصد أمير بلدة أو شيخ قرية ويلثم يديه ورجليه ويتضرّع إليه أن يؤويه أياماً ريثما يجد مكاناً ، فإذا رأته والحالة هذه وسألته عن مقره أجابك بأن الأمير فلاناً دعاه إلى النزول بداره ، وأمسكه عنده ؛ ولا يريد أن يطلقه كلفاً به .

ومنهم من يروعك بمخطته الشديدة فتظنّ أنّ المكان تزلزل منها ، أو بتجشّئه الذي يسمع له صد <sup>(219)</sup> . ومنه من إذا حيّيته في الصباح شخر وزمجر ، وقتل شاربيه وزفر ، وقس على ذلك من يُزكّي حرفته ، ويفتخر بصنعتة إلى ما لا نهاية له ، فإذا تقرّر ذلك فاعلم أن كبر الإنكليز من النوع الأول وهو أنك تنظر فيهم الأنفة وكلوح الوجه ، ولكن متى خاشبت <sup>(220)</sup> منهم أحداً تبين لك أنه لا فخور ، ولا فياش . فمن كان دخله منهم في العام 1,000,000 ليرة أو همك أنه مثلك ، إذا كنت مثلي ذا همّ في معيشتك ونصب ، ومن يكن عنده ألفا كتاب مثلاً فإذا قلت له : ما أكثر كتبك . قال لك : لعلّي مسرف في شرائها ، وما كان ينبغي لي هذا . مع أنه لو قال لك : إني قادر على شراءٍ ضعفيها لكان من الصادقين .

ومن كان منهم يحكي البدر جمالاً كقول شعرائنا لن ينبس بكلمة تدلّ على أنه

(219) في الطبعة الأولى : صدى . (م) .

(220) في الطبعة الأولى : خاطبت . (م) .

فتن امرأة بحسنه ، ومن يكن مطلعاً بالعلوم الفنون ، فإذا سألته عن شيء لم يجيبك إلا بعد التروي ، ولا ينسب إليه حلّ المشاكل واستخراج المجهول ، وإذا سألته عن شخص يدعي العلم ويؤلف ما لا يرضى به العلماء قال : لعله استعجل فيما ألفه ، ولم تمكنه مراجعته ، وقد يكون مع المستعجل الزلل . ولا يعيا عن أن يجد له عذراً يستر به عيبه . ومن يكن في أعلى المراتب لم يستنكف أن يجيب من يسأله أيّاً كان ، فقد تبين لك أن كبر الإنكليز إنما هو في وجوههم أكثر منه في ألسنتهم وقلوبهم ، وإن وسم الناس إياهم بالعجرفة مطلقاً ليس في محله ، إلا أنني لا أنفي عنهم الاتصاف بعزة النفس وترفيعتها عن أن تذلل لأحد ، وهي من الخلائق المحمودة . فأما كبر السفلة فهو إبداء العبوس أيضاً مضافاً إليه عدم التأدب في الكلام والحركات ، ونبرهم في الخطاب ، وسوء الضحك واللقاء والمنصرف وهلم جرا .

## أنواع الكذب

هذا وكما اشتهر عن الإنكليز الكبر كذلك اشتهر عنهم الصدق ، ولكن ينبغي أن تعلم أيضاً أن الكذب على أنواع : أحدها نية مائع ، وهو الذي اتصف به أهل البلاد الشرقية ، وذلك كأن يعدك الإنسان بالحضور في الساعة الفلانية ، ثم يخلف ، أو يعدك بقضاء حاجة ، وفي قلبه أن لا يقضيها أو أن يسافر إلى استانبول ، ويقول : إن مؤلف كتاب الساق على الساق قد ضُغَطَ بين عاجلتين فمات ، أو أن تكون قد أرسلت له كتاباً فينكر وصوله ، أو أن يقول لك : قد أطريت عليك البارحة عند فلان ، فهو يبلغك السلام ، ويدعوك إلى منزله ، حتى إذا سرت إليه وجدت الأمر بالعكس ، أو أن يقول : نويت السفر غداً إلى المشرق ، ثم يسافر إلى المغرب ، وغير ذلك مما لا يجدي نفعاً ولا يوصل فائدة .

والثاني : كذب مطبوخ جامد ، وهو ما تستعمله الإفرنج وخصوصاً تجارهم ، فيكتبون مثلاً على بضائعهم أنها من أنفس الأشياء وأنها صنعت باختراع آلات جديدة أحدثت عن طول تبخر في علم الهندسة ، وأن لحمه هذا الثوب من الهند وسداه من الصين ، أو أنه سلطاني أو ملكي أو أمير ي أو مولوي أو وزير ونحو ذلك ،



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



## عادة النبلاء في الإرث

ومن عادة الشرفاء والنبلاء أن لا يورثوا جِلاءهم وأملاكهم إلا للابن البكر ، فإن شاء أعطى إخوته ، وإن شاء حرمهم ، ففي هذه الحالة يلتزم الأهلون بأن يقوموا بكفائتهم ، وإذا كان البكر مسرفاً فبذّر أموال أبيه اشترى له أصحابه أو أهل البلاد ، وإخوته وظائف من الدولة ، أو تبعثهم الدولة إلى البلاد الخارجية . والحكمة في توريث البكر دون غيره هو إبقاء الجِلاء في العيلة وصون ناموس البيت<sup>(223)</sup> ، وإذا تقدّم الابن بنت بقي له حقّ اللقب والوراثة ، هذا إذا كان التراث عقاراً ، فأما إذا كان حصصاً مضاربة مثلاً أو أياها متنقلة قُسم بين الإخوة .



## ما يُحمد من الكبراء وما يذم

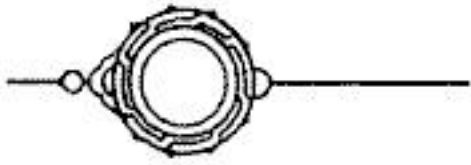
وتما يُحمد من الشرفاء ومن ذوي المراتب السامية هنا أنهم لا يتداخلون في التجارة ، ومن منكر عاداتهم أنه إذا دخل أحد على جماعة من هؤلاء العلية ، ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط لم يسلم إلا عليه ما لم يعرفه بهم صاحبه ، ويقول له في شأن كلّ منهم هذا فلان ، إلا أن هذا التعريف لا يلبث أن يصير تنكيراً فإن من تعرفه في المجلس لا يلتفت إليك إذا رأته في الغد في محلّ آخر . فأما إذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم أحداً فلا يحيي مطلقاً ، بخلاف عادة الفرنسيين ، فإن من يدخل على جماعة أياً كانت يضع يده على رأسه ، أو ينزع برنيطته احتراماً لهم ، وكذلك إذا خرج ، وإن لم يكن يعرفهم .

ومن تعرّف عند الإنكليز بأحد أفراد العائلة مثلاً وتردّد عليه فإن لم يعرفه بأبيه وأمه وإخوته ، فلا يسلم عليهم إذا رأهم داخلاً فلا يُلام على تركه ، ولا يُحمد على فعله .

وإذا استخدم أحد جارية ولقي أباه وأمه لم يسلمها عليه . وقد تقدّم أن الغني

(223) ناموس البيت : سمعته وشرفه ، (عامية) . (م) .

يمكن له أن يطلق امرأته برفع دعواه إلى مجلس المشورة ، فإن الطلاق من الأمور الصعبة هنا ، ولا يمكن رفع دعوى مثل هذه إلا بمصاريف وافرة لا تنقص عن أربعمائة ليرة ، إلا أنه بعد تحرير هذا الكتاب أبيع الطلاق للعامّة من دون مصاريف ، فإن مجلس المشورة رأى ذلك أصلح للرعية ، وهو الرأي الأسد ، وبقي هنا أن نقول : إن رؤية الزوج زوجته مع رجل أجنبي في حجرتها تكفي عندهم في أكثر الأحوال لإثبات الزنا من دون رؤية الميل في المكحلة ، وأربعة شهود عدول كما يقتضيه الشرع الإسلامي ، وهذا من دون هذا الوجه شديد ، فإن الطلاق لما كان في الشريعة المحمّدية مباحاً ضيق على الرجل في إثبات الزنا على زوجته ، وحيث كان محظوراً في شرع النصارى إلا لأجل الزنا فسمح للرجل في إثبات الزنا عليها بمجرد خلوتها مع الرجل .



### من غريب عاداتهم

ومن الغريب هنا أنه قد جرت العادة عند العامّة بأن يبيعوا نساءهم بيعاً لعدم إمكان طلاقهن ، وصورته أنه إذا شعر الرجل بأن زوجته تحبّ آخر عرض عليها الانتقال إليه ، فإذا تراضيا أخذها وباعها لعاشقها بحضور شهود ، وقبض منه ما يؤذن بصحة البيع ، وتخلّص بعد ذلك من تبعتها .

وفي أخبار العالم ما نصّه : رجل باع زوجته في حانة لرجل بنخمسة شلينات ونصف ، وقبض الثمن بحضور شهود ، وذهب بها المشتري ، ولما كان الغد ندم زوجها على ما فعل ، واستقال في البيع فلم يُقل .

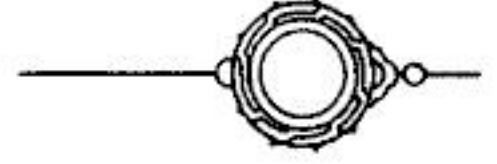
وذكر أيضاً فيه أن توماس داي تزوّج امرأة في سنة 1849 فأساء عشرتها ؛ فتركته ، وعلقت برجل من سكوتلاندة اسمه روبرتسن ، ففاوض زوجها على أن يشتريها منه ، فاجتمعوا ذات يوم في حانة وباعها له الزوج بحضور شهود بنصف بنت من الجن<sup>(224)</sup> تقاسموه جميعاً .

وفيه أيضاً أن توماس ميدلتون باع زوجته ماري ميدلتون لفيليب روستنسن

(224) الجن : شراب مسكر . (م) .

بشيلين وربع من الجعة ، وتراضيا على الافتراق الدائم ما داما حيّين .  
وهذه العادة وإن تكون غير مباحة في أحكام الدولة إلا أنه مسكوت عنها كما  
سكت عن إباحة الزنا للمومسات فإن الزنا هنا معلوم لأرباب الأحكام لكنه غير  
مباح . وكثيراً ما يقوم السمّ مقام هذا البيع ، فإنّ التخلّص من الأزواج به أكثر منه  
بالطلاق أو البيع .

### من عاداتهم في الزواج



ومن عاداتهم في الزواج أن البنت لا تتزوَّج إلا من كان مساوياً لها في السنّ ، أو  
كان أكبر منها بسنتين ، أو ثلاث ، وفي ذلك شطط إذ لا يخفى أن المرأة متى بلغت  
الأربعين سنة لم يبقَ فيها من القوة والنشاط ما يبقى في الرجل ، ولا سيّما إذا كانت  
منتاقاً<sup>(225)</sup> . نعم إن النساء هنا لا يعجل فيهن الهرم ، فإن من يكون سنّها ثلاثين سنة  
تبدو كمن سنّها عشرون في بلادنا ، غير أن هذه الصفة تراعى في جهة الرجال أيضاً .  
وفي بلادنا لا تثيرب على من بلغ الخمسين أن يتزوَّج بنت عشرين ، وهذا يندر  
هنا جداً إلا لسبب عظيم ، وذلك كأن يكون الرجل أشرف من المرأة وأغنى ؛ فترغب  
فيه لتشاركه في شرفه وغناه ، إذ كانت هاتان الصفتان عند الإنكليز أفضل من جميع  
المناقب ، ولا سيّما إذا روعي في ذلك مصلحة تربية الأولاد ، وفي هذه الحالة فلا  
مانع أيضاً من أن يكون الزوج شيخاً فحلاً لعلمها أن حرارتها لا تلبث أن تذهب  
ببرودته ، فتستولي على الميراث .

وإذا خطب أحد امرأة ، ثم بدا له أن يعدل عن الزواج لغير موجب شرعي غرم لها  
مبلغاً عظيماً ، ولا حرج على اليهود أن يتزوَّجوا من النصرى ، وللأب أن يجبر ابنته  
على الزواج بمن شاء إذا لم تبلغ حدّ الرشد ، وهو عندهم إحدى وعشرون سنة ، وبعده  
ليس له عليها من إمرة إلا بالمعروف والنصيحة ، ولكن كثيراً ما تهرب البنت من تحت  
حجر أبيها ، وتتزوَّج من شاءت وإن حرّمها من الميراث ، وإذا خرجت من حجره بعد

(225) المنتاق : الولود . (م) .



بلوغ رشدها لم يبقَ لوالديها استطاعة على ردها ، ووصية الموصي قبل بلوغ ذلك السن لا يُعمل بها .

وللذكر أن يعقد الزواج عند بلوغه أربع عشرة سنة ، وللبنات عند اثنتي عشرة ، وما دام الولد دون سن الرشد فعلى الوالد أن يقوم بنفقته ، وبعد ذلك لا يلتزم بها . وإذا تزوج الولد قبل هذا السن فلأبيه أن يحرمه من ميراثه ، ومتى تزوجت المرأة انتقل جميع ملكها إلى حوز بعلمها ، ولكن لها أن تستدين على اسمه ويجبر هو على وفاء دينها . ولا يحلُّ للرجل أن يتزوج أخت زوجته ، وقد كان لرجل زوجة وله منها عدة أولاد فلما حضرها الموت أقسمت على زوجها أن يتزوج أختها بعد موتها لتربي أولادها ، فتزوجها ، فلما علم ذلك في ديوان الحكم فرّق بينهما ، فسألت من أخبرني بذلك عن سبب هذا الحظر لأنه غير مبني على مصلح ، وقلت : إن كان تحريمه ورد في التوراة فقد ورد فيها تحريم أمور كثيرة استحلتها النصارى ، فلأبي سبب أضربتم عن تلك ، وتمسكتم بهذه فقط .

فقال المصلحة في ذلك هو أن لا يتوصل رجل واحد إلى إحراز جهازين من بيت واحد .

فقلت : ولكن الفقراء يتزوجون من غير جهاز ولا ميراث .

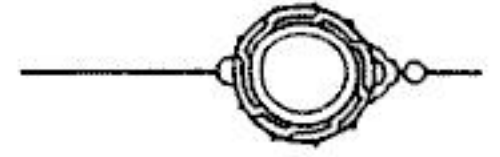
فقال : إن الشرع هنا ملحوظ فيه مصلحة الكبراء .

ولا بدُّ من أن تشهر الخطبة في الكنيسة ثلاث مرّات متوالية في أيام الأحاد ، وإذا مسّت الحاجة إلى الزواج بدون إعلانها غُرم الرجل ضعفي النفقة ، وهي في الغالب خمس ليرات ، أمّا في سكوتلاندة فإنّ الزواج يتوقّف على شاهدين فقط ، فلذلك كان كثير من الإنكليز يذهبون إلى هناك ليتزوجوا ثم يرجعوا . ويُقال : إنّ مجلس المشورة يهّم بأن يعيّن إقامة أحد وعشرين يوماً هناك قبل الزواج قليلاً من استعمالها ، ومن تزوج امرأة زوجها حي غُرم ونُكل . وللمرأة المتزوجة عند الإنكليز احترام أكثر من غيرها ، وإن تكن أصغر سناً من غير المتزوجة ، فإذا خرجن من مجلس إلى موضع الأكل مشيت المتزوجة قبل تلك ، وأجلست في أحسن موضع ، ولا بدُّ للمتزوجة أن تلبس خاتم الزواج في بنصر يدها اليسرى ، ومن لم يكن لها خاتم لم تحسب متزوجة وإن كان لها خمسة بعول ، ومن الغريب أنه عند عقد الزواج يلقن القسيس الرجل أن

يقول للمرأة حين يضع الخاتم في إصبعها : بهذا الخاتم أتزوجك ، وبجسمي أخدمك . ولا معنى للباء في قوله بهذا لأن الخاتم ليس آلة للزواج ، ولفظة اخدمك لا يفهمها أحد من العامة بهذا المعنى . وعند تناول طعام العرس تلبس العروس ثياباً بيضاء ، وتقعد النساء على المائدة وعليهن برانيطهن .

وعادة الأغنياء منهم أن يعتزل الرجل بعروسه بعد عقد الزواج ، فيقيم معها شهراً في خلوة عن الشغل والأهل والأصحاب ، وتسمى هذه المدة عندهم قمر العسل . ولا يكاد المثري يتزوج إلا مثرية مثله ، وإذا تزوج الرجل امرأة ووضعت عنده بعد شهر ألزم بتبني الولد وتربيته وإن يكن من غيره . وكذا لو علم أنه عائش مثلاً مع مومسة وولدت ولداً . ومن ثبت عليه أنه افتض بكرة فولدت منه أجبر على أن يؤدي إليها في كل أسبوع شلنين ونصفاً في الأقل إلى أن يبلغ الولد تسع سنين . أمّا الافتضاض قسراً فيعاقب عليه بالتغريب والنفي ، وكان يُعاقب عليه في عهد وليم الأول بسمل العينين وفي عهد الصكسونيين بالموت .

### ما يُحمد من تربيتهم للأطفال



ومن العجيب أن الوالدين من الإنكليز إذا كانا قبيحين تأتي أولادهم ملاحاً ، فإذا دام هذا الإسناع<sup>(226)</sup> حقة فلا يرى فيهم بعد من قبيح ، والظاهر أنهم أحسن تربية للأولاد من غيرهم ، فإنهم يغسلونهم بالماء البارد في كل يوم إذا كانوا أقوياء ، أو بالفاتر إذا كانوا ضعفاء ، ولا يقمطونهم حتى يمتنعوا من الحركة كما يفعل في بلادنا ، وإنما يشدّونهم بحزام فقط ، وبعد نصف سنة يعوّدونهم على الأكل الخفيف مع اللبن ، فلا تأتي سنة على الطفل إلا وهو يلتقم كل شيء ، ولا يكاد طفل يحدث في ثيابه أو يفحم<sup>(227)</sup> من البكاء كما يكون عندنا ، غير أنني كثيراً ما رأيت الأمهات هنا يسقين

(226) الإسناع : الجمال والحسن . وأسنع الرجل : جاء بأولاد حسان طوال . (م) .

(227) فحم الصبي : انقطع نفسه من شدة البكاء . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

هان عليّ مع أن الدكتورية المذكورة كانت على غاية من الورع .

### جزعهم عند المصيبة

والظاهر أن جميع الإفرنج يجزعون عند المصيبة ولا يفوضون أمرهم إلى الله ، وإن تلبّسوا بالعبادة ، وأنصفوا بالجراءة على أنهم لا يكادون يفجعون بموت أحد إلا ويتناسونه ، فالاستسلام لقضاء الله إنما هو من خصوصيات المسلمين ، وكفى بلفظ الإسلام دليلاً عليه . وفي هذه القرى لا يوجد أطباء ولا عقاقيرية ، وإنما يكون ذلك في بعض البلدان المجاورة لها ، حتى إن ما يوجد هناك منهم إن هو إلا نفاية ، فلو سكن أحدهم في إحدى المدن الجامعة لما نال بعلمه رغيماً .

### عادتهم في المآدب

وعادتهم في المآدب أن تجلس لضيوف على المائدة ، وتجلس سيّدة الدار في الصدر وتأخذ في أن تقطع لهم شرائح اللحم رقيقة ، وتناول الصفحة<sup>(231)</sup> للخادمة ، فتضعها الخادمة أمام الأكل . ولو حصل لك خمس حصص من تلك الشرائح لما شبعت ، والإكثار من أكل الخبز عندهم مظنة الهمجية . وقد أدبت مرّة عند أحد أعيانهم ، فلما جلسنا على المائدة أخذت الفوطة ووضعتها على حجري ، وكانت كسيرة الخبز مخبأة فيها ، فوقعت وأنا لا أدري ، واستحييت أن أطلب غيرها ، وهم ظنّوا أنني تنكلزت في بلادهم ، فلما تحركنا للقيام إذا بالكسيرة لاصقة بنعلي ؛ فتذكرت حينئذ قصة ذلك السائل الذي طرق باب بنخيل ، فرمى له بكسرة خبز أخت كسرتي هذه التي انتعلتها ، فأخذها وتأمّلها ، ثم طرق الباب مرّة أخرى ، فقال له صاحب الدار : قد أعطيناك فلم لا تنصرف ، قال : قد أعطيتموني هذا الدواء ولم تقولوا لي كيف استعمله . وإذا كان على المائدة لونان من الطعام ، أو ثلاثة ، كأن يكون مثلاً شواءً من

(231) كذا وردت وأحسبها : الصفحة كما جاءت في الطبعة الأولى . (م) .

البقر ودجاج ، خيَّرتك السيدة أيهما تريد ، فإذا تناولت من لون سقطت شفتك من الثاني ، وندر أن تعطيك منهما كليهما ، ولا يمكن أن تعطيك شيئاً ، أو بالحرى من شيء إلا إذا استطلعت رأيك فيه أولاً .

ولا يمكن للمدعو أن يمدَّ يده إلى زجاجة الخمر ويصبَّ منها في قدحه ، بل لا بدَّ من أن ينتظر السيّد أو السيّدة أن يعرضاً عليه ، وكذلك سائر المأكول والمشروب ، ويحزني أن أقول : إنني كثيراً ما رأيت صاحب المنزل يقطع للضيوف اللحم ، ثم يستكره عليهم فيضع في صحفته ما استكرهه ، فربّما امتلأت من تلك القطع ، وكنت أرى المدعوين معي يتكلّفون الأكل تكلفاً ، ويتبلّغون بما لا يكاد يكفي الصبي ، فيبقى ثلاثة أرباع الطعام كما هو .

وإذا برد عندهم اللحم المطبوخ فلا يأنفون من أكله كذلك أسبوعاً ؛ فلهذا ترى المحضّر على المائدة كثيراً بالنسبة إلى مقدار الآكلين ، وكمية أكلهم . وقد سألت يوماً المرأة التي كنت نازلاً عندها ذات يوم فقلت لها : نشدتك الله إلا ما صدقتني . هل أنا من الأكّالين المفرطين؟  
قالت : لا .

قلت : قد دُعيت غير مرّة ، ورأيت المدعوين معي جميعهم لم يأكلوا قدر ما أكلت أنا مرتين .

فقلت لي : إن الدعوة هنا إنّما هي صورة فقط ، فإنّ المدعوين يأكلون في بيوتهم قبل أن يحضروا الوليمة ؛ فأخذني العجب من ذلك ، وطفقت أفكر في مخالفتهم في ذلك لعادتنا ، فإنّ المدعوين عندنا كلّما أكثروا من الأكل زاد سرور الداعي بهم لاعتقاده أنّهم أحبّوا طعامه .

وإذا قلت لواحد من الإنكليز : إن فلاناً دعاني إلى الشاي قال لك : إنه هو كثير الفضل وما أشبه ذلك ، هذا عند الوسط من الناس ، فأما عند العظماء والزعماء فإنّ الخادم يطوف على الحاضرين بأنية الشراب ويخيّرهم أيّ نوع يشربون ، وربّما شربوا المزّر أولاً ، ثم قليلاً من الخمر ، حتى إذا فرغوا من الأكل قامت النساء وانفردن في مقصورة ، وبقيت الرجال على المائدة ، وحينئذ تُتداول كؤوس الشراب والمناقلة على النقل بغير محاشاة ، وربّما قضت الرجال ساعة أو ساعتين على الشرب والنقل ،



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.

الأرنب منتناً ، فقال : لا تُعُدُّ تَذَكْرَ لفظة منتن ، فإنَّها قبيحة تشمئز منها المسامع ، فقلت : ما دمتم أنتم تأكلون المنتن ولا تشمئزون منه فلست بمنفك عن أن أذكره ، وهذا كتشممكم من أن تذكروا في كتبكم ضخم أرداف المرأة ، مع أن نساءكم النحيفات يعظمن عجائزهن بما لا مزيد عليه من الحشايا والمرافد بما لو فعلته الفواجر عندنا لخرجن ، فأنتم حييون من الاسم ، ووقحون على الفعل إن هذا لغريب فضحك هو وزوجته .

وقالت لي مرّة إحدى النساءِ المخدومات : ما أطيب العيش في بلاد النمسا لولا أنني أكره شيئاً من طبخهم .

فقلت : ما هو؟ وقد توقّعت أن تقول أكلهم الأرنب منتناً .

وإذا بها قالت : إنهم يطبخون الفراخ بعد ذبحها .

وشكوت ذات يوم لسيدة طول استمراري على صنف واحد من الطعام ، فأرسلت إليّ خادمها في اليوم القابل يقول : إن سيدي تدعوك إلى الغداء ، فلما توجهت قالت لي : إنني سمعتك بالأمس تشكو من الطعام ، فصنعت لك اليوم ما يعجبك . فلما هيئت المائدة قُدِّمَ عليها أرنب بأذانه وذنبه وإذا به مُنتنٌ ذفر<sup>(234)</sup> يملأ ذفره الخياشيم ؛ فتعوّذت بالله ، وقلت ما قال ذلك الظريف : إن عمر هذا الحيوان بعد موته أطول منه في حياته .

والظاهر أن الإنكليز يحبون أكل الأرنب وصورته أيضاً ، فقد دخلت مرّة دار الصور في كمبريج مع دكطر لي فكان أوّل ما وقع نظري عليه صورة ملكة من ملكات إسبانيا على هيئة الاضطجاع عُريانة ، وثمانها أربعة آلاف ليرة ، وإلى جانبها صورة أرنب وصياد ، فجعلت انظر إلى صور الملكة وجعل هو ينظر إلى صورة الأرنب ويستدعيني إلى ذلك .

(234) ذفر : خبيث الرائحة . (م) .



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.





You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



You have either reached a page that is unavailable for viewing or reached your viewing limit for this book.



# الرحلة

يضمُّ هذا الكتابُ في مُزأيه مُلأصةً تجررية علم من رواد النهضة العربية . يبدأ المؤلف رحلته بلمحة جغرافية وتاريخية عن جزيرة مالطة تبين موقعها على الخريطة ، وتذكر تعاقب الفاتحين عليها إلى أن أصبحت تحت الحماية البريطانية ، ثم يتحدث عن مناخها ومُنزهاها ، ويصف باستفاضة عاصمتها « فاليتا » ومعالمها وعادات أهلها في طقوسهم وأنماط عيشهم وتباين أحوالهم .. إلى غير ذلك من شؤون حياتهم المختلفة . ثم يتحدث عن حكومة الإنجليز وتساؤلها مع أهالي مالطة ، مبيناً أن الحكم فيها مالطي ، وإن كان الحاكم إنكليزياً ، ومن الطريف أنه لا يرى فضيلة لنساء الإنجليز إلا أنهن يُحسن القراءة والكتابة ، ويرى عن حب العلم في أبنائهن منذ الصغر . وفي الجزء الثاني ، بعد أن عاش الكاتب سنوات في كلٍّ من إنكلترا وفرنسا ، وأطلع على جوانب الحياة ومظاهر التمدن في هذين البلدين أطلع الباحث المدقق ، نراه يواصل ما بدأه الطرطاوي ، فيكتب عن تمدن أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر ، مركزاً اهتمامه على أحوال أمته ، ساعياً إلى دفعها في دروب اليقظة والإصلاح الشامل في مناهي الحياة كافة ، أملاً في أن تلمح بركب المدنية الحديثة على أساس من خصوصيتها الحضارية والأخلاقية التي تميزها عن سواها من الأمم .

ISBN 9953-36-589-X

دار النشر  
والطباعة  
والتوزيع



المؤسسة  
العربية  
للدراسات  
والنشر

أرشاد  
للأفان

